عامر الدحير

شمس منتصف الليل

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

عيسى يوسف الدويشي

شمس منتصف الليل

عامر الدحير

شمس منتصف الليل

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

عامر الدحير

شمس منتصف الليل

الطبعة الأولى : **2018** م

رقم الإيداع المحلي: **2018/410**

رقم الإيداع الدولي: **9789959-11-945-5**

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: **7165022.21821**+ - بريد مصور **4843580-21821**+

ص.ب: **75454** - طرابلس **Email: almosgb@yahoo.com**

شكر وتقدير

اتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير للأستاذ الكاتب الكبير منصور بو شناف على ما تفضل به من مشورة وإطلاع وتوجيه عند الإعداد لهذا الكتاب كما أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ محمود اللبلاب على ما أسداه لي من ملاحظات وجهوده المميزة.

الكاتب

الاهداء

إلى كل من لمست يداه كتابي هذا
واستقطع جزءاً من وقته لقراءته.

المقدمة

لازلت أذكر أنني عندما كنت طفلاً صغيراً كنت أحب اللعب بلعبة صغيرة جداً هي عبارة عن مصباح إضاءة يدوي يعمل ببطارية جافة واحدة بحجم اصبع نسميها باللهجة الليبيةبيله وكنا نسمي البطاريات الجافة بالعماير وكان أكثر ما يزعج أبي إلحاحي عليه لشراء تلك البطاريات الجافة الصغيرة (العماير) لأني كثير الاستعمال لها، وبالعودة إلى البيله أو المصباح اليدوي كنت أحب استعماله بطبيعة الحال ليلاً أو أن أضع نفسي تحت غطاء معتم نهاراً لأمارس هوايتي في الإضاءة به لأكشف عن كل الزوايا وخاصة تلك شديدة السواد سواء كانت تحت ذلك الغطاء أو ليلاً .

وما زلت أمارس تلك الهواية حتى الآن التي لم يتغير شيء منها سوى أني أبدلت ذلك المصباح بقلمي .

الوادي

دارت الأيام وانقلبت السنون واستقبل الزمن أيامه وسنينه برحابة الصدر الكبير كيفما أتته ألما وشده أم رخاءً وسلاماً وألفة فما هو إلا ثوبا لتلك الأيام والسنين على الرغم من اللعنات التي يتلقاها من بني البشر الذين يلعنون زمانهم الذي ولدوا فيه أو عاشوا فيه.

دارت الايام على الجميع البسيط والعاقل والغني والفقير وأجدني أكثر ميلا إلى أنها دارت عليهم فرادا فهناك من صُعق بدورانها حتى فقد وعيه وهناك من أُصيب فيها بحالة من الغثيان الذي أفقده اتزانه واضطر إلى التقيؤ أكثر من مرة وهناك من افقدته نصف حياته دون أن نغفل عن أن هناك من امتلك ما يغنيه عنها كيفما أتت وبلمحة بسيطة ندرك أن الزمن كالوادي الذي يُحْشَر فيه البؤساء والفقراء وضعاف الحال وأيضاً الكثير ممن تم إقناعهم بالمكوث فيه أو حتى حول أجنابه لأنه نائم نوم أهل الكهف ولا يتهددهم في شيء سواء ممن ينامون مغمضي العينين أو ممن ينامون بنصف عين وفجأة وبقدرة قادر وبعد كل تلك السيول التي جرفت الجبال وصنعت لها أخاديد وكأنها تندب من حين إلى آخر ومن سنة إلى أُخرى لتحذر من غدر الوادي دون أن تجد أذن تسمع أو عين ترى وإسرار على النوم حتى

يفاجئهم ذلك الوادي ليكتسح عششهم وخيامهم أو حتى بيوتهم الذابلة المهترئة ولن يسعفهم الزمن للصعود إلى أعلاه وسينال منهم وإن صعدوا.

ومن الغريب والمدهش والمثير للإعجاب أيضا أن هناك من يتحدى ذلك الوادي وذلك الزمن وكأنه يصارع آخر أو يلاكم آخر ويعلم أن النجاح أو الفوز ما هو إلا صبر ساعة، وعليه تذوق العلقم وما أقساه حينما يذيقه أطفاله أيضاً ، وها هو أحد المتحدين يعود إلى بيته وعائلته بعدد من أرغفة الخبز ليعطي كل واحد منهم رغيفاً ويقول له هذا رغيفك اليوم كُله متى تشاء صباحاً مساءً ليلاً وعليك انتظار رغيف الغد في مثل هذا الموعد لعلى أدعمه بشيء ما كالجبن أو البيض ويذهب للنوم بجوفه الفارغ الذي عوده على مفاجئته له بموعد أكله ، نام ولم ينم جاورته زوجته المسكينة التي نالت حصتها من الرغيف تألمت كثيراً وبكت أكثر في تلك الليلة فهي الليلة الأولى التي نامت فيها العائلة على ذلك الرغيف البسيط .

نهض صباحا قبل أن يصحوا الأطفال من نومهم أشار على زوجته أن لا توقظ أحداً منهم وتركهم ينامون أطول زمن ممكن، سألها ما رأيك في البحث لك عن عمل نعين به أنفسنا وافقت بسرعة شديدة ثم تساءلت وماذا سأعمل أنا لا امتلك أي شهادات إلا إذا تعلمت شيئا ما، رد عليها نحن لا نجد ما نأكل ولا مجال لأن تتعلمي أي شيء ولكنني سأتدبر الامر في مكان ما.

خرج من بيته متجها إلى أحد الاسواق كالعادة تساءَل عما سيفعل في البحث عن عمل لزوجته، الوقت لا يسعفه ولا يستطيع التأخر عن السوق ليؤمن لأبنائه شيئاً يقتاتون منه ويحميهم من الجوع المتربص بهم، واصل سيره نحو السوق إلى أن وصل وهو يردد يا فتاح يا كريم يا رزاق يا عليم ، دخلت إحدى السيارات مُحَملة بالخضروات أشار عليه سائقها برغبته في من يفرغ حمولتها دون أن يتوقف جرى ورائها وعيناه تنظران يميناً ويساراً لعله يمرق صاحبه ليشاركه تفريغها فهو لم يخرج بعد من الصدمة التي صدمته وصاحبه بالأمس عندما عادا من السوق دون أية أجرة واكتفيا بشراء بعض أرغفة الخبز التي اقتسماها، فلم يره، لحق بالسيارة وتمسك بأحد اجنابها إلى أن وصلت لم يناقش السائق للاتفاق معه على المقابل وتوجه فورا إلى فك الحبال ولملمتها والبدء في تفريغها، اقترب منه السائق وقال له ألا ترى أن العبوة كبيرة وأنها سترهقك لوحدك أليس من الأفضل أن تبحث عن آخر يعينك عليها، رد عليه بكلمات متقطعة سأتمكن من تفريغها لوحدي، أجابه أنت حر لكنني لن انتظرك طويلا، أكمل تفريغ السيارة ، قبض أتعابه التي حشرها في جيبه دون عدها لألى يخيب أمله في قيمتها وتوجه للبحث عن صاحبه، قصد أحد معارفه بالسوق ممن تعرف عليهم من خلاله ليسأله عنه، علم منه أن صاحبه نُقل إلى المستشفى ليلة البارحة وصار لزاماً عليه زيارته للاطمئنان عليه وخاصة أنه نُقل وهو مغشي عليه.

ذهب مسرعاً إلى المستشفى توقف عند الباب ولم يُسمح له بالدخول لتأخره قليلا عن موعد الزيارة سأل أحد الخارجين من معارف صاحبة عنه وتأسف لعدم تمكنه من الدخول ، أشار عليه بأن هناك منفذ عبر دار الموتى يمكنه استعماله للدخول ورؤية صاحبه توجه إليه على الفور ماراً من أمام تلك الدار أخرج منديلا من جيبه ليضعها على أنفه إتقائاً لانبعاث بعض الروائح منها، ولكنه فجأة توقف أمام إعلان عن حاجة دار الموتى بالمستشفى إلى عاملات تغسيل للنساء الموتى بالدار وبمقابل مجزي وكبير ، واصل سيره إلى الغرفة التي ينام فيها صاحبه وظل ذلك الإعلان عالقا في ذهنه ضحك حينما خطرت عليه فكرة عمل زوجته في تلك الدار.

عاد إلى بيته بعد أن ألقى بنظرة اطمئنان على رفيقه ، وفي صباح اليوم التالي جلس مع زوجته يتناولان كوبا من الشاي وكعادتها بدأت ما اعتاد على سماعه كل يوم من شكوى ودموع ثم سألته الم تقل لي إنك ستبحث لي عن عمل.

- نعم ولكن هل ستعملين بدار الموتى.
- أعمل حتى في المقابر ألا ترى الاطفال ماذا فعل بهم الجوع.
- وماذا أفعل أكثر مما أقوم به من أجل تأمين لقمة العيش لهم.
- أشياء كثيرة جداً حرموا منها

- لا بأس ستتحسن الامور وسنعود إلى حياتنا الطبيعية وربما أفضل
- يجب أن لا ننتظر حتى يأتي لنا هؤلاء بالحل إنهم يبيعون ويشترون لأنفسهم .
- هل أنتِ جادة في قبول العمل بدار الموتى
- نعم
- ولكنني اشفق عليك .
- أطفالك أولى بالشفقة.
- يجب أن نتريث قليلا سأمر اليوم على المصرف من يدري لعلي أحصل على مبلغا ولو كان بسيط .
- وكم سيكفينا هذا المبلغ الذي ربما تتحصل عليه
- سيكفينا لأيام قليلة نفكر فيها في موضوع عملك بدار الموتى.
- أرى أن تذهب إلى المستشفى أولا لتقديم طلب العمل قبل أن يقتنص أحد غيرنا الفرصة ولا تضيع وقتك أمام المصرف.
- الفرصة
- نعم هناك من هم أسوأ حالا منا

- حسناً سأذهب إلى المستشفى ومنه إلى السوق، وصل المستشفى وتقدم بطلب باسم زوجته للعمل بدار الموتى للقيام بمهمة تغسيل النساء الأموات إلى الموظف المختص، نظر ذلك الموظف إلى الطلب وبدأ في قراءته من أسفل ورده عليه بسرعة قائلا له نحن نريد نساء وليس رجال أمسك من يده بالطلب مشيراً إلى اسم زوجته بالسطر الأول وأنه يحمل بصمتها، أشار الموظف عليه بالانتظار قليلا ريثما يتم عرض الطلب على مدير شئون العاملين، جلس في الانتظار أمام الساعة المعلقة بجدار المستشفى والتي ظل ينظر إليها بين حين وآخر ويحسب الوقت لكي لا يتأخر عن السوق، الوقت بالنسبة إليه ثمين جداً وكل ساعة تمضي قد تؤثر عليه ، أقنع نفسه أنه كما لكل يوم رزقه فإنه أيضا لكل ساعة رزقها، عاد إليه الموظف مناديا باسم زوجته توجه إليه منصتاً إلى ما سيقوله وكأنه يترقب مولوده الجديد إن كان ذكراً أم أنثى .
- نظر الموظف في عينيه ادرك أنه متلهف للخبر تعجب من ذلك وأشفق عليه وقال له.
- عد في الغد سأحاول إقناع المدير بقبول طلبها إنها لا تحمل أي شهادات .
- وهل يتطلب هذا العمل شهادات غير اللياقة الصحية

- نعم يوجد عدد من المتقدمات يحملن شهادات .

شكره وغادر مسرعاً إلى السوق، وفي الغد الذي حل اليوم وفي هذه الساعة التي هي الآن دخل على الموظف بالمستشفى الذي بادره قائلا بأن طلبه قد قُبل بعد الحاح منه على المدير بضرورة قبوله لِما بَدى على الزوج من ضعف حال أكثر مما بَدى على باقي اصحاب الطلبات ، فرح فرحاً شديداً وقبل أن يغادر هنئه وقال له على زوجتك الحضور لمباشرة العمل ابتداء من يوم الغد شكره وغادر إلى بيته بدلاً من السوق وفضل قضاء باقي يومه مع أطفاله الذين اشتاق للعب معهم كثيراً بعد أن كان يخرج صباحاً ويعود مساءً وهم نيام، تقبلت زوجته ذلك بفرح وسرور وخاصتاً أنه عاد لها بالخبر السعيد بحصولها على العمل بدار الموتى !!!.

وفي أول يوم عمل لها بالمستشفى تَصادف أن تقابلت مع إحدى السيدات عند خروجها سألتها عما تفعل هنا قالت لها أنها تحصلت على عمل بمغسلة المستشفى فرحت لها لأنها تعلم بحالها وقالت لها.

- هل يحضرون لكم الغسيل أم أنكم تجمعونه بأنفسكم من الأقسام.
- يحضرونه لنا ملفوفاً في لحاف أبيض كبير وبعد تردد أضافت وهي ضاحكة نقوم بغسله ثم نضعه في الثلاجة.
- في الثلاجة.
- نعم للتعقيم.
- فهمت أنتم أدرى بعملكم.

انصرفت تلك السيدة وغادرت الزوجة إلى بيتها كان عليها إعداد طعام العشاء لأطفالها وزوجها، عاد الزوج من عمله آخر النهار دخل عليها المطبخ سألها كيف وجدت العمل.

وجدته كما توقعت جثث وروائح ومناظر تغمض العين عيناها ولا تراها، تم تنهدت وقالت ذكرتها بأطفالي سكبت قطرات من دموع كأنها الندى داوت بها جراحها نظرت إلى تلك المناظر وكأنها لا تراها وامتدت يداي للعمل ، وسكتت، اعتذر منها وقال أعلم أنه ليس بالعمل الهين وانسحب إلى غرفته ، أعدت الطعام على السفرة ودَعَت زوجها وأطفالها اليه، حضروا والتفوا حول السفرة إلا أن الزوج وأطفاله فوجئوا ببعض الأصناف الموجودة من الطعام كانوا قد افتقدوها منذ زمن قابل الأطفال ذلك بالفرح والسرور وصاح بعضهم بالقول أوو ما هذا بينما استقبل الزوج ذلك بنظرة استغراب وتساؤل شعرت الزوجة بذلك أشارت للجميع بمباشرة الأكل وكأنها تقول لزوجها اطمئن ليس في الأمر ما يدعوا إلى الريبة ، تقدموا بأيديهم إلى الطعام اللذيذ الذي أعدته لكن الأمر لم يقف عند هذا لدى زوجها فهو لم يكن طبيعياً مائة بالمائة عند تناوله لطعامه وكأن شيطان التأفف سكن قلبه أو أنه ينازعه ، هكذا أحست ، لم يستمر في ذلك طويلا حلاوة الطعام صرفت باله إلى التمتع به وكبح جماح تلك الوساوس التي قد تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه مع زوجته واكتفى بالسؤال عن تلك الاصناف بتلميح لا يعيه الأطفال، أجابت من فضل الله.

أتموا طعامهم وانتقلوا إلى جلسة ما بعد الطعام لاحتساء كوب من الشاي كالعادة وكانت تلك الجلسة فرصة لتأكيد ما تبادلاه من جمل بالتلميح، بدأت حديثها قائلتا ما أود إخبارك به هو ما لم أتوقعه في العمل، وقد وجدت نفسي مرغمتا على تقبله، قمت اليوم بتغسيل ثلاث نساء كانت إحداهن امرأة عجوز طاعنة في السن خفيفة الوزن كأنها الريشة حتى أني غسلتها كما لو أني أغسل طفلة صغيرة ، حضر إلى الدار أربعة رجال ضخام لاستلام جثمانها وهم يذرفون الدموع ويبدوا عليهم الحزن الشديد سلمتها لهم ولم أصدق نفسي حينما قالوا لي أنها أمهم ، عزيتهم فيها وقلت لهم كانت خفيفة شعرت معها وكأنني أمسك بطفلة ازدادت دموعهم وزاد بكائهم وعلا صوت أحدهم قائلا بل كانت طفلة عاشت طفلة وماتت طفلة وها أنت تشهدين ، امتدت يد كل واحد منهم إلى جيبه وأخرج ما فيه ليلقي به في جيبي ويستحلفني بالله قبوله صدقة عليها، قبلت بها وفي طريق عودتي من عملي قمت بشراء بعضاً مما حُرمنا منه منذ زمن ، أنصت إليها وفضل التعليق على ما سمع منها بالمؤازرة والقبول وأن الله قد بعث لهم برزق من عنده، نظرت له وقالت لا تنسى أن هذا سيحمينا من مأزق الوقوع في مشكل السيولة والمصارف، قابل قولها بالإيجاب والضحك من الأيام والزمن .

ناما ليلة هادئة عكست مشاعر الأمان التي أحسا بها وفي اليوم التالي ذهب كلٌّ إلى عمله، تحسنت الأحوال بأن استطاعا تأمين الغذاء

والعلاج ومصاريف تعليم أطفالهم وظل الزوج مستمرا في عمله بالشكل الذي اعتاد عليه، أما الزوجة فقد ظلت أسيرة لأطفالها فلم تشأ حرمانهم من فرحتهم، كأن ضحكاتهم كانت دواء وبلسماً يداوي معاناتها الشديدة من ألم الصراع مع الذات للاستمرار في ذلك العمل الذي أخفته عنهم وعن الجيران وجميع معارفها ، ذات يوم عادت من عملها يملأُها الكدر ولم تشتكي لأحد نامت ليلتها كمن ينام مُثْقلا بالهُموم، قبل الفجر بقليل استيقظ زوجها على صوت آهات تحاول الدفع بها للخروج من فاهها وما أن وضع يده عليها بلمسة خفيفة لإيقاظها حتى دفعت بتلك الآهات للخروج بصيحة قوية وأفاقت غير مصدقة بأنها في فراشها بجانب زوجها، أحضر لها القليل من الماء سألها عما بها للاطمئنان عليها أجابت .

- حلم مزعج للغاية
- لابد أن هناك شيء ما تَعرضتِ له في عملك
- نعم
- ما هو ولماذا لم تخبريني عنه قبل النوم
- تقصد أن ذلك سيجعلني أنام بشكل أفضل
- نعم
- لم أشأ إزعاجك، هل تذكر تلك المرأة التي تشاجرت معها.
- نعم وهل أنساها كم كانت قاسية ظلمتك ظلما لا تطيقه امرأه.
- توفت وغسلتها اليوم.

- توفت.
- نعم وضعتها أمامي على ذلك السرير الخشبي وقمت بتغسيلها كأي امرأه ولكنها ارعبتني .
- حتى وهي ميتة .
- خِلت شفتاها تتحركان وكأنهما ينطقان بكلمة سَامحيني، لم أصدق عيناي، أغمضت عيناها على الفور ووضعت يدي على فمها، هي من كانت تصرخ في أذناي بذات الكلمة.
- سامحيها يرحمك الله ويؤتك بها أجرا عظيما
- الحمد لله ، قد سامحتها
- اذكري الله وعودي إلى نومك
- استمرت حياتهما على هذا المنوال، طوابير وجثث وصدقات بين صعود وهبوط تبدوا مؤشراتها على وجوه الأطفال كل يوم ودعوات بالصحة والعافية والسلامة من الأذى فلم يعد هناك مكان للنواميس، حُطِمت كل المكاييل والموازين وبعثرت إلى أقصى الأرض .

وظَل الصباح يعيد نفسه ويذكرهم كل يوم بما هم فيه، لا أمل لهم سوى انتظار صبح جديد وإن طال.

انتهت

12/ 2017

الإرث

نغرق في الجهل حتى الثمالة ولا نخفي عن وجوهنا لمحة اللؤم ولا عن أعيننا النظرات الثاقبة المستفزة حتى إيماءاتنا بحك الأنف أو الجبهة أو الرقبة لها مدلولها السيء احياناً، نحن نحتقر بعضنا البعض والغريب أن كُلّنا لا نطيق ذلك الاحتقار ولكننا نمارسه وقد يكون الجهلة أرقى في تعاملهم مع بعضهم البعض من غيرهم المتعلمين.

لا بل أن المتعلمين أو من ندعوهم بذلك اصحاب شهادات الارصفة التي تباع في اسواق الأحاد في شتى عواصم العالم والذين لا يملكون من الثقافة شيء يتشطرون في معاملاتهم فهم يؤجلون مواعيدهم دونما سبب ويتعللون بانشغالهم ويؤخرون اعمالهم إلى أوقات تناسبهم لغاية في نفوسهم أو نكايتا فيمن يتعاملون معه وكثيراً ما يربطون الأحداث بعضاً ببعض.

هؤلاء هم في الغالب نخبة الشعوب المتخلفة، ما هذه الافرازات السيئة؟ أنهم لا يردون حتى على هواتفهم وإن طلبت مقابلة أحد هذه الشخصيات فستلاحظ أنها شخصية محجوبة إلا على الندر اليسير من أشخاص معينين وليس معنى هذا أنها تضع نظام للتواصل معها أو مع من ينوبها لتتمكن من خلاله الحصول على حقك في انجاز معاملتك

بل أنك سَتُصد بدروع بشرية وأمنية تجلسك لساعات ويصعب التعامل معها وأغلب ردودها أن المسؤول في اجتماع فهم لا يملون الاجتماعات ولا المهمات الخارجية والمؤتمرات انهم يعشقون المطارات والسفر والخمس نجوم وكذلك الورق الاخضر الذي يفرشون به مستقبلهم ومستقبل ابنائهم على حساب الحالمين للعيش بكرامة.

كما أن لهم أوقات معينة للنظر في المعاملات تتغير كلما حضرت لإنجاز أي منها بمعنى أنه لا وجود لاستقرار إداري ومن أين لهم أن يأتو به وهم من تربى على العبث وإيثار المصلحة الشخصية وخدمة الأقربون الأقربون.

وان صادفت احد هذه الشخصيات خارج مكتبة فستهرع مسرعاً للحديث إليه فيما يخصك وباختصار شديد فقد بلغ بك الحد أن تفعل أي شيء حتى على حساب شخصيتك واحترامك عندها فإنه إما أن يمتنع عن الرد عليك أو أنه يجيبك بكلمة أو اثنين دون أن يتوقف بل ويتلذذ بملاحقتك له ايها المسكين.

ولكن لا بأس تذكر أنك من الشعوب المتخلفة لترتاح قليلاً ولا تفكر ابعد من ذلك لأنك ستصدم اكثر فإننا من بعد هذا الظاهر ننام على بركة عفنه نُغرق فيها بعضنا البعض حالما تتهيأ الظروف إلى ذلك وعلينا طرح العديد من الأسئلة على انفسنا لكشفها على أمل تفاديها أو تحجيم اضرارها ليس إلا ونسأل هل كان من المفروض ان نقرأ تاريخنا الأسود ونركز عليه؟ لماذا نحب حرب داحس والغبراء، وحرب

البسوس التي استمرت اربعون سنة ولماذا نُعجب بالمهلهل سيد ربيعة الذي رفض خلع درعه وسيفه إلى ان يخلع الليل النهار وهذا مستحيل وان تبيد سراة بكر وهذا ان لم يكن مستحيل ايضاً فهو كارثة انسانية تعني الانقراض.

ياللهول انظروا إلى هذا المنبع التاريخي الانساني.

اما الحجاج فحدث ولا حرج نقرأ سيرته في حُكمة للعراق وأهله الذين نعتهم بأهل الكفر والنفاق فهل هم كذلك أم انهم سلالة حضارات انسانية عريقة ويتوجب علينا ابراز ذلك لأجيالنا انني اشعر ان الحصاد لن يغير جلده ليخرج لنا شيء أخر مخالف لما زرعنا.

والأدهى اننا نربط قسوة الحجاج وقطعة للرؤوس وغلظته وما كان يمثل من رعب للرعية بأنه حافظ للقرآن الكريم عن ظهر قلب حتى انه راجعة في لحظات صعوده صهوة جواده عندما دعت عليه امرأة عجوز.

وكأني بهم يدسون السم في العسل اتجاه ديننا السمح.

ونحن كأجيال عندما نترعرع علي هذه الكتابات التاريخية تنتابنا تساؤلات كثيرة اتجاه المسئول عن هذا المورد الثقافي الذي أراد من خلاله كاتبه شحن عقولنا بالعنفوان والجبروت وليتضامن مع الطبيعة القاسية لمناطقنا الحارة والجافة بدلا من اثراء افكارنا بالسماحة والتسامح والعفو وبرش رذاذ الرحمة وزرع سمائنا بسحاب ماطر وليلنا بقطرات الندي وصباحنا بالنسيم العليل لنستقيم ونتعامل بالحسنى

وننبذ القهر والاستبداد ونجنح الي السلم الاجتماعي الانساني الذي نحترم فيه أدمية الانسان ونعمل للبناء.

أن استذكار التاريخ بقصصه وعبره بروح الشهامة والكرم والمواقف الانسانية النبيلة وحب العمل والبناء وطلب العلم وعشق الأوطان أجدي وأقوم.

ولكن ماذا أقول للحجاج والمهلهل الذي هلهل وهلهل حتي غرق في الدماء وكاد يُفني قبيلتين وصرنا نهلهل معه ونهلهل حتى اختلطت علينا اللغة واختصرناها وحرفناها كعادتنا وصرنا نهلل ونهلل وزاد ذلك سوء فصرنا نأله و نألهولغير الله اصبحنا عبيدا. لك الله يامهلهل كم صنعت من مهلهل والمشكلة ان العرق دساس الذي أتخذ من الناس مداس علي شواطئ العدم أصبحت أكداس ممنوع منها الاقتراب او المساس، وهي لم تعد شيء في الأساس حكمها الوهن وما عاد يوقظها حتى ان تداس إلا ان ترجوا منك التماس لعلك تحن على من مات في الوحل وتتراجع لنستقي منك قليلا من الحب قليلا من الاحساس.

لماذا يامهلهل؟

هل آلمك قتل أخاك كليبا الي هذا الحد؟

أتظن انه كان علي حق ولم يطغي ولم يتجبر؟

انهم أبناء عمومتك قد أقرواله بالقيادة وميزوه كرما منهم لدورة البطولي الشجاع في هزيمة اعدائهم وربما بقائهم ولكن هل بإمكاننا القول احذر من البطل اذا اكرمته.

هذا لم يرد في تُراثنا مع الأسف.

راجع نفسك لعلك مخطئي ولعله أخطا.

ما زلت في البداية كم انت عنيد لم تتغير ابدا كنت سجينا لكأسك والآن صرت سجينا لفكرك.

مسكينة تلك المرأة الجليلة زوجة أخاك كليب لم يُغني عنها حبها له ولم يُغني عنها أشعارها الجميلة التي قالتها في عزاءة هي هوين كان يمشي كان يمشي فوق رمشي فقد تغلبت الأحقاد ونعرة الانتماء والقبلية والجهوية والجهل والعناد والتعصب على الوارث واشتدت اكثر مما كانت لدى المُورِث فما الحل؟

طردت الجليلة من بيت العزاء وعادت إلى بيت أبيها.

طردتها الفتنة التي أوجدها جساس اخيها قاتل زوجها كليب وهي الأن بين شقى الرحي طُردت وطُرد معها الملايين ربما منذ ذلك الحين وحتى الان عادوا معها إلى مدنهم وقبائلهم ومناطقهم ليتحصنوا بها من شر الفتنة وآخرين غادروها لنفس السبب فالفتنة نار يشتد سعيرها مع مرور الزمن حتى وإن بدت خامدة في جزء منه فهي في لحظة ما تستعر وتلتهم المزيد.

ولا بطولة لك أيها المهلهل لا أنت ولا من تبعوك من مهلهلي التاريخ.

ان كليباً قُتل طعنا من الخلف وأن جساساً قد حذره اكثر من مرة قبل رمية بالرمح قائلاً له اني قاتلك ليلتفت إليه وربما لينازله ولكن

جبروت كليب ابي ذلك فما كان على جساس إلا ان رماه برمحه وأرداه قتيلاً.

واختلف الناس بين مؤيد لجساس وفعله وبين متهم له بالخيانة والطعن في الظهر وهم ممن كانوا لا يجرؤون حتى على الاقتراب من كلب كليب ناهيك عن كليب بذاته.

ان الطغاة لهم حضور يفضى على المكان مرضهم وطغيانهم ويحوله إلى مقلاة يتراقص فيها الناس كما تتراقص حبات الذرة في مقلاتها.

ان مواجهة الطغاة يخشاها البعض حتى امام صورهم، إذن لماذا نتهم جساساً بالخيانة والطعن في الظهر وخاصة انه حذره، لا شك ان ذلك هو حب الخوف من الطغاة الذي يصنعه الطغاة بأيديهم وسط الرعية وكم من جماهير تراقصت بالقفز على الارض بأقدامهم حتى كادت تزلزلها أمام طغاتها وعند العودة وتلاشى أثر الطاغية والرجوع إلى الرشد الكثير منهم يندمون، لا شك ان هذا يحتاج إلى طبيب نفسي يشرح لنا السبب اما انا فان قلمي يعجز عن ذلك.

ليس هذا فقط بل أن ما أعجز عن شرحه وتفسيره انهم يخلطون بين أسماء طُغاتهم والمهلهل والحجاج لا إراديا حينما يهتفون لهم انه الارث الذي فعل فعله ومازال.

الصحراء

الصحراء واضحة جداً رمال وشمس وتضئ الدنيا كجبهة صبيه تستطيع النظر فيها إلى أبعد مدى يمكن أن يصله نظرك لن تُخفى عنك شيء ورغم وضوحها هذا تبدوا كأنها تستفزك للمغامرة احذر قد تمشي طويلاً ثم تفاجأ أنك ما زلت في ذات المكان هي لم تُخفى عنك شيء أنت المسئول حتى وإن ابتلعتك كأكلة شهية أو أن أحد عقاربها أرداك قتيلا عندها من المؤكد أنها ستقوم بواجب الدفن في أقصى سرعة فإكرام الميت دفنه ولن تجد أية مشقة في ذلك، فكر مليا املأ الدنيا صراخ لن يسمعك أحد ولن تُحرج مع أحد ردد خطاباً أخلع ملابسك لك كامل الحرية.

استمع إلى صفير الرياح تحسس أذناك جيداً ربما اصابهما بعض التراب إنها تحدثك، استمع وأجب.

- عد إلى الغابة غريمتي.
- أنا لا أحيا في الغابة.
- ها ها ها لا تحيا في الغابة وأين تعيش إذن.
- أنا في القرية وغيري الكثيرون في المدن.
- أتود إقناعي بأن هناك شيء غيري عدا الغابة.
- يبدو أن شدة حرارتك أترث عليك.

- دعني مِن يبدو ولا يبدو فأنا لا أعلم سواها لقد دخلت في معارك كبيره معها منذ ألاف السنين واستطعت تحرير الكثير من الأراضي منها ألا ترى نقائي أما رمالي وحرارتي فهما سلاحي الذي ادافع به عن نفسي.

- معارك .. ألاف السنين ماذا تقولين.

- هل أريكَ الدليل تقدم هناك ليس ببعيد عنك.

- أين.

- هناك أمعن النظر ماذا ترى.

- صخور تبدوا كجذوع أشجار.

- بل هي كذلك.

- جذوع أشجار.

- نعم هُزمت منذ ألاف السنين وبقت مكانها أكرمتها بالدفن بعد أن انسحبت جيوش الغابة المهزومة وابقت جثث قتلاها انتم الآن تَحيون فيها ومعها وتتصورون أنكم في مكان آخر.

- آه قد تصحرت القلوب.

- لا أرفض هذا أنتم تقولون أن حياتنا أضحت كالغابة وليس كالصحراء أليس كذلك.

- بلى إنه كذلك.

- في الغابة قد تأكلك السباع وقد لا تدفن، الرؤية محدودة جداً يحددها مكانك فيها، قد ينالك شيء من شعاع الشمس إذا سعيت له وإلا فإنك ستحيا في الظل لماذا تغطون عين الشمس بالغربال.

- سأعود إلى قريتي أقصد غابتي.

- قسوت عليك أليس كذلك.

- لا، أنا في غابتي تحت الاقامة الجبرية شكراً لكِ قد منحتني قسطاً من الحرية سأعود بشيء منك أحشو به وسادتي لتصبح ترابية وداعاً.

شجرة الوطن

كلما مررت من أمام مدرستي الابتدائية ازددت شوقاً لزيارتها بعد هذه السنوات الطوال وفي كل مرة أجد نفسي مشغولاً أو أن الوقت لا يناسبني وحالي كحال بقية الخلق هذه الأيام فإن كان بعضهم يسعى لرزقه الذي لم يعد يناله بسهولة فإن أغلبهم لا يسعى إلى رزقه بل إلى تثبيت ما يرد إليه من مال يعيش به وأسرته سواء من الدولة أو من أية جهة أخرى وهو ليس برزق لأن الرزق مقترن بالله سبحانه تعالى هو من يرزقنا فلا يمكننا القول أن الله رزق لصاً سطى على بنك أو أن احداً ذهب إلى المصرف آخر الشهر ليتقاضى راتبه وهو متغيب عن العمل أو أنه لا يؤديه بالوجه المطلوب يعد رزقاً.

المهم أن هذا هو حال معظم الناس وحالي أيضاً وفي يوم ما اقتنصت بعضاً من وقتي لزيارة مدرستي دخلت بقدمي اليمنى وسميت باسم الله ولم اتجاوز سوى خطوات قليلة إلى داخلها حتى التَفَتُ إلى خلفي على صوت جهوري انتفضت معه حتى انه احرجني قائلاً تفضل يا خوي بطريقة خالية من الأخوّة وليس لها أي مدلول على ذلك من خلال النبرة وملامح الوجه للرجل الذي يبدوا انه مباشر بالمدرسة ومكلف بحراسة الباب ولا أدري لماذا تذكرت في نفس اللحظة التي نظرت فيها إليه مباشر المدرسة عندما كنت أدرس بها.

لقد كنا نخشاه كما نخشى المدرس فكلمة واحدة منه للمدرس أو الإدارة كافية لننال بها عقوبة، كما أنه في احياناً ما يساعد المدرس على تنفيذ العقوبة بالتلاميذ من خلال الامساك بالفلقة.

لقد تربينا على سياسة الخطأ يقابله العقاب دون النظر إلى ما إذا كنا مسئولين عن ذلك الخطأ أم لا.

أَفقتُ من غفوتي حينما كرر المباشر قُتلك تفضل يا خوي رددت عليه دون حتى ان احييه لقد اربكني وقلت جئت إلى هنا لزيارة المدرسة.

اعتدل في وقفته قليلاً وأصلح من حاله وأخفض صوته قائلاً تفضل هل انت من التعليم ويعني الوزارة للحظات احترت ماذا أرد عليه حتى استدركت الأمر بسرعة وقلت له لا ولكني حضرت لزيارة شخص ما بالإدارة، وتوقعت أن ينتهي الأمر عند هذا الحد ويسمح لي بالدخول ولكنه بادرني بسؤال آخر.

- من
- أجبت مدير الإدارة
- لم يحضر بعد
- سأنتظره بالداخل أن لم يكن هناك مانع
- باهي تفضل معليشي هي

يا الله يا مدرستي اشتقت إليك توقعت أن تستقبليني بالورود ولكن لا بأس لربما أنت مغلوبة على أمرك مثلي ومثل كل المؤسسات التي تفرض التعامل مع المباشر أو الشرطي وتوضيح سبب الزيارة ونوع المعاملة وتفاصيلها ليسمح لك بمقابلة المسؤول أو لا وهذا يعتمد على فهمه لك ولمعاملتك على الرغم من محدودية ادراكه فهو لا يعدو كونه مباشر أو ما شابه ولكن في الحقيقة كأني به لم يعد ينقصه إلا ختم وما عليك سوى التعامل معه بكل روح رياضية لتكون من الفائزين بالدخول إلى المسؤول الذي ربما تفاجأ بخروجه إلى المباشر وتوبيخه لسماحه لك بالدخول عليه.

المهم أني دخلت وعاد المباشر إلى مخبئه الذي فاجئني منه دخلت رويداً رويداً ولكن ليس للإدارة كما قلت بل إلى هدفي الذي جئت من أجله مدرستي.

تأملت الجدران والنوافذ والممرات وجدت نكهة غير عادية في ذلك التأمل حتى أن من يراني ربما يتهمني بالجنون عندما يلاحظ نظراتي وإيماءاتي وحتى ابتساماتي ولكن لم أُبالي بأحد ولم أصرف النظر عنها كانت جزء من تاريخي كانت فيها الأيام سنوات نلتقي كل يوم دونما كلل أو ملل نختفي نلعب نستجدي بعضنا البعض دونما أي احراج في الحصول على قطعة مما بيدك من طعام (عطيني نتشه) كل

شيء كان جميل لأن عقولنا لم تتعدى بعد إلى ما يزعجها ويؤرقها أو ما يعكر صفوها.

ومن الشاطئ الذي غرقت قدماي في رماله الناعمة وجدت نفسي ادخل الماء وأتلقى ضربات الأمواج الخفيفة وشيئاً فشيئاً تعالت الأمواج وكبرت ولم يعد قلبي قادراً على صدها وتمنيت أن يعود الزمن إلى الوراء وتساءلت ما السر في أن نتعلم بعد فوات الأوان ولماذا نظن دائماً ان القادم أفضل لقد اثبت التاريخ أن هذا المفهوم خاطئ والدليل ليس ببعيد أنه أمامي فأنا ما زلت اتعلم من مدرستي القديمة رغم حاضري الجديد أو انها استغلت زيارتي من بعد زمن طويل لتلقنني درساً بعد ما يبدوا انها اشفقت عليّ وعلى حالي نعم يبدوا لي ذلك فأنا لم أشأ النظر إلى اللافتة الحديدة البيضاوية المعلقة إلى بناء المدرسة حتى بادرتني بالترحيب كم كان ذلك مذهلاً ازدادت معه دقات قلبي وكأن احداً شد وثاقً على لساني فلم استطع الرد لقد صدمتني وبعد بلعي لريقي أكثر من مرة رددت عليها أهلاً، انها صامدة منذ بناء المدرسة ولم يعتريها الصدأ أي نوع من الحديد هي أهي قوية إلى هذا الحد الذي يجعلها تصمد كل هذه السنوات الطوال لتطوي ربما أجيال ما الذي يجري ربما تريد القول أنها اقدم أُستاذ بالمدرسة فكل التلاميذ الذي يدخلون المدرسة أول ما يقرأون ما كتب عليها وأيضاً ربما أنها ملت من ذلك وأحست بالمهانة والنفاق القهري فهي لم تثبت على عنوان

معين أو درس معين هذا ما راودني في خاطري نحوها مؤكداً ذلك بترحابها لي ترحاب السجين لزائره.

لملمت أوراقي ووضعت يدي على قلبي وعاودت القول لها أهلاً أهلاً.

- ردت لِما أنت هنا

- لزيارة المدرسة ولِم لا أنتِ أيضاً

- أنا

- نعم، كيف حالك

- أنا كزماني

- وأنت

- وهل سأخرج عما قلت

- ربما تراه بعين أخرى غير التي اراه بها

- ربما ولكنني اصارع زماني على رأيك

- أنا لا اصارعه

- كيف

- لم يهب لي الله عقلاً مثلك

- أجل ونعم بالله

- ولكنني مللت

- مللت ماذا

- تغيير وجهي

- ما به وجهك

- الا تذكر ملامحه في تلك الفترة منذ عشرات السنين وكيف كان يبدوا حينها كنتم تلعبون أمامي وكنت في شبابي وكلماتي التي هي مبادئ واحدة قبل ان اجبر على تغييرها

- نعم نعم أذكر كنا نحتفل بعيد الشجرة هنا امامك ونملأ المكان بالأشجار والورود ونشيد مسرحاً للاحتفال، اذكر أيضاً احدى المسرحيات التي قدمناها في تلك الاعياد حيث غرسنا شجرة في قلب المسرح وبدأنا في ملئ حوضها بالماء لسقايتها وتناوبنا طابور من الطلبة على إحضار الماء في أوعية لملء ذلك الحوض ولكن دون جدوى فلم يمتلئ رغم محاولاتنا العدة والمكررة فقد أوجد له المُخرج انبوب من اسفل ليتسرب منه الماء دون علمنا ولا أدري لماذا اراد المخرج ذلك توقفنا وسألناه فقد كان معنا على خشبة المسرح وصاح فينا بِأعلى صوته شد كل من بالمسرح إليه في صمت للكلام وأعين لم تفارقه لحظة قائلاً لماذا توقفتم تعبتم مللتم .... انتم مازلتم في بداية الطريق افعلوا أي شيء ولكن لا تيأسوا اليأس من التضحية يعني النهاية أمامكم شجرة الوطن ستذبل وربما تموت ويموت معها الوطن استمروا وكرر افعلوا أي شيء امزجوا الماء بالتراب وإذا لزم الأمر بالدم هيا هيا هيا، تفاعل

الجمهور معنا ولم يعد مستقراً في مجلسه فالوضع اصبح حرجاً والقضية اضحت قضية وطن زودونا بالتراب خلطناه بالماء فاحت علينا منه رائحة الأرض ودونما كلل أو ملل عدنا لملئ حوض الشجرة حتى سدت حبات التراب ذلك الانبوب اللعين واسكتته إلى الابد وامتلئ الحوض بل وفاض وفرحنا ورقصنا وتقاذفنا تراب الأرض المبلل ولطخنا به وجوهنا التي كانت ستتلطخ بالعار لو اننا تهاونا وتعالت الزغاريد وانتصر الوطن.

- ذاكرتك ما زالت قوية رغم كبرك

- ومشاعري اتجاه وطني أيضاً

- وهل نسيت عيد الوحدة

- لا ولكن الملك ألغاها لننسى اننا لم نكن واحد

- هو من اختار لي هذا المكان الذي ما زلت فيه ولا أدري كم سأبقى

- أطال الله عمرك ليس مهماً كم ستبقي المهم وجهك

- نعم وجهي صدقت لقد تغير عدة مرات في كل مرة يُطلي بطلاء جديد ومخالف لسابقة حتى اني في كل مرة أعود إلى الصفر لأبدأ من جديد لقد مللت التكرار أود الاستمرار في خطاي لأصل

- تصلين إلى ماذا وانت باقية في مكانك

- لأصل بكم إلى مبتغاكم احلامكم انتم حياتي
- وأنتِ أُمنا أنتِ الصبر والمعلم والمربي والحاضن لكل همومنا
- كتبتم على وجهي المملكة الليبية وطليت بألوان متعددة وبعد حين من الزمن طليت بألوان اخرى ثم الاخضر وكتبتم الجمهورية ثم الجماهيرية حينا من الدهر ثم من بعد ذلك وفي اطار طقوس العودة إلى الصفر عدت إلى ما طليت به أولاً ولكن باسم جديد هو دولة ليبيا
- نعم انه التغيير الثورة التي هي منطق التاريخ
- أوافقك حتى انني توسمت خيراً وهو شأنكم الذي انتم ادرى مني به ولكن!
- ولكن ماذا
- اصبحت في حيرة ومَزَقني الألم على وطن ليس له من مصلح تعالت فيه أصوات الجهل والعناد والكل بادر إلى جمع العتاد واستباحة الغرباء كمن استباح بيتا على صهوة جواد حيث غاب جواد الوطن أو انه احتار في راكبه وايعازاته له بالمضي تارة يمينا وتارة اخرى يساراً
- نعم يؤلمني ذلك

- ألا يعد هذا ظلماً لي حتى وأن كنت حديد ألـم يمـيزكم الله عنـا نحن الجماد بالعقل لماذا لم تعقلوا حتى جعلتم الحديد ينطق انـا لا تهمني الاسماء التي لطختم بها وجهي ان ما يهمني هـو حـريتكم امانكم سعادتكم كرامتكم

- نعم نعم لم تتركي لي شيئاً أفرغتِ كل ما في قلـبي سـألتمس طريـق العودة إلى الشاطئ قبل ان أغـرق، ولكـن مـا هـذا أهي السـماء تمطر نظرت إلى أعلى إلى لافتتي العزيزة فإذا بقطرات من دموعهـا تتساقط اختلطت بدموعي

تراجعت ببطء لألى اتعثر وليكن وداعي لائقاً بمن أحست بالوطن اكثر من بشر زعموا انهم ينتمون إليه وقلت لها وداعاً.

غادرت المدرسة وعند بابها امعنت النظر إلى المباشر فاكتشفت انه هو نفسه منذ اكثر من خمسون سنة.

انتهت...!

الحنين

لابد أنهم قد ظلموك أيها الحنين فأنت تمتلك نفس الحروف الأولى للحب وثلاث أخرى هي أقرب إلي الأنين الذي لايُسمع إلا من إنسان حزين متأثراً من شيء ما يملئه الحنين.

أعلم أن الحب يقابله الكره أما الحنين فيقابله البُغض، وأنا أَحِن إلي وطني ولن ابغضه في يوم من الأيام وقد أكره حبيبي ولكنني أيضا أحِن إلي تلك الأيام التي قضيتها معه.

إذن هو داك الحنين سلطان المشاعر لا أحد يعبث معه هو من شد قيس لليلى وعنترة لعبله والابن لأمه والمفارق لأحبائه.

فقيس وليلى وعنترة وعبله والابن وأمه لابد أن كلن منهم قد أحس بشائبة ما نحو الآخر، لكنه الحنين الذي يلتهم كل شيء ولا يُبقى حتى علي أنفاس قليلة لعداه ليفرض علينا إرادته ولنحيا زمن الفطره الذي ولدنا عليه.

على الطريق

في كل مرة يتقدم قليلاً إما اتقائاً للشمس أو لاختيار المكان المناسب لإيقاف السيارات العابرة وفي كل مرة لا يعيره أحد أي انتباه رغم شكله وملابسه الأنيقة التي لا تثير أية شبهة، وبعد أن أعياه المشي والانتظار لمح من بعيد بوابة للشرطة يقف عليها شرطيان يوقفان السيارات تارة لفحص إجراءاتهم وأوراقهم وثارة أخرى يسمحون لهم بالعبور دون ذلك على أن يمروا على البوابة ببطء شديد.

تقدم نحو تلك البوابة شيئاً فشيئاً إلى أن وصلها نظر إليه الشرطيان متسائلين عن هذا الشاب الأنيق الذي يتقدم نحوهم على قدميه في هذا الطريق الصحراوي القاسي، توقف عندهم ألقى التحية عليهم سَقوه بعض الماء وسألوه عن حاجته.

ذكر لهم أنه يوجد لديه القليل من المال ويرغب في العودة إلى العاصمة وحاول إيقاف بعض السيارات دون جدوى، رد عليه أحد أفراد الشرطة أهذا فقط ما تريد قال نعم رد عليه الشرطي هذا أمر بسيط جداً وبإمكانك اختيار حتى نوع السيارة التي تناسبك لركوبها، استغرب الشاب من الرد وللوهلة الأولى اعتقد أن الشرطي يمازحه أو أنه يقصد شيء آخر مريب وما أن انتهى من حديثه لهم حتى عادا إلى

عملهم لإيقاف السيارات ويتحدثون مع بعضهما احياناً ويضحكون احياناً أخرى وهو ينتظر، راودته بعض الظنونوتمنى أن يعود إلى مكانه السابق لرُبَ سائق رحيم يرأف به ويوصله إلى حيث يشاء وبينما هو على هذا الحال اقتربت سيارة عائلية صالون بها رجلان وطفل أوقفاها يميناً تقدم لها أحدهم سأل السائق إلى أين مقصدك، قال العاصمة وبادر إلى تجهيز أوراق السيارة وأوراقه الخاصة، رد عليه خليهم معاك وأضاف هل رأيت ذاك الشاب أريد منك نقله معك إلى العاصمة، رد السائق على الرحب والسعة دون أي ترحيب أو سعة بدت عليه وما كان من ذلك الشاب إلا أن أخذ حقيبته الصغيرة بيده وتقدم نحو السيارة محيي السلام عليكم دون أن يردها عليه أحد صعد السيارة وانطلقت وانطلق معها الصمت كانت المسافة طويلة حاول الشاب كسر هذا الصمت بالسؤال عن الحال والأحوال ولربما يفتح الباب لأسباب تواجده بالبوابة فلم يَلقَى استجابة منهم وكانت ردودهم مقتضبة للغاية ويلجأ السائق إلى زيادة صوت المذياع أو وضع شريط كاسيت للاستماع إليه وفي الطريق ومع تعدد البوابات وكثرة التوقف أحس أن الرجلان متدمران من ذلك دون أن يفصحوا بشيء من مشاعرهم، تملكه إحساس بأنه كالشوكة في الحلق تعيق أي تعليق لهما على ذلك الوضع دون أي ذنب له.

انكمش في كرسيه الخلفي وظل صامتاً حتى كادوا ينسوا أن شخصاً معهم بالسيارة.

تساءل مع نفسه وقرر اقتناص أول فرصة للاستراحة للتعبير لهم عن مكنوناته لعله يُجلي شيء من الرهبة التي تملكتهم فزمن البوابات هذا فعل فعله على كافة المستويات وبعد وقت اختلطت فيه المشاعر مع الزمن توقفت السيارة امام مطعم على الطريق وكان الوقت ليلاً ولا يبدو منه سوى بعض الضوء نزلا منها وانزلا الطفل فبادر إلى النزول معهم بسرعة بعد ان شعر انهم كادوا يقفلون عليه السيارة ريثما يعودون.

تقدموا ودخلوا جميعاً المطعم رحب بهم النادل أفسح لهم الطريق سحب ثلاثة كراسي لهم وأحضر أخر كرسي أطفال بسرعة وكأنه قذف به قذفاً من بعيد كان أمام الأمر الواقع جلس الشاب في مقابلة أحدهم وغابت الابتسامات احتار الشاب قليلاً ثم هدأ بعد ان تذكر قراره.

أحضر النادل ثلاث قوائم للطعام استلمهم جميعاً احدهم بطريقة قابلها النادل بابتسامة، وضع أحد القوائم أمام رفيقه والأخرى أمام الطفل واحتفظ بالأخيرة لاحظ النادل الذي ظل يتبعهم بعينيه ذلك فهرع مسرعاً لإحضار قائمة أخرى وضعها أمامه واعتذر على أنه احضر ثلاثة فقط.

نظر كلن لقائمة الطعام وفي لحظة علا فيها نظره قليلاً لمح غمزة من أحد الرجلين للأخر لخصت له ما عناه منها من انه سيكون عالة عليهم في حساب العشاء، ورطه لابد من الخروج منها هكذا حدث نفسه، طوى قائمة الطعام وبقى جالساً بانتظار النادل الذي لم يتأخر كثيراً سأل الرجلان عن طلبهم فأبلغاه بذلك وبحاجة الطفل لبعض الطعام المناسب، ثم توجه إلى الشاب بنظره وقال وماذا تطلب أنت أيها الشاب التفت إليه قائلاً كأس شاي استغرب النادل وقال فقط رد عليه نعم اشعر بالشبع ومعدتي تؤلمني قليلاً رد عليه كما تشاء، دون أن ينطق الرجلان ببنت شفه وكشفا الستار الذي تدارا خلفه طيلة الرحلة.

وقف الشاب وطلب من النادل أن يحضر له الشاي عند الصالون المقابل الذي انتقل إليه.

اختلطت الأوراق ولا بد من إعادة ترتيبها جلس شارداً بدون حراك سوى مد يده بين الفينة والأخرى لتناول رشفة من الشاي الساخن فجأة بدأ في تحسس جيبه ليطمئن على ذلك المبلغ البسيط الذي يتدفأ به، مبلغاً كان ذا قيمة بالنسبة له فقد وعد أمه بشراء هدية لها عند عودته تبسم في لحظة ثم عاد إلى التيه والرحلة والطريق.

لم يدم ذلك طويلاً، اعتدل في جلسته ثم وقف أمام كرسيه وكأني به أحد جنود هتلر.

تقدم صوب الخزينة المداراة قليلاً عن أعين الزبائن بصالة الطعام وهو يتساءل لعل وعسى سأل موظف الخزينة عن حساب الرجلين والطفل وكوب الشاي، رد عليه ثمانية عشر دينار استبشر وأخرج من جيبه العشرون دينار التي يملكها دفعها للخزينة وتبقى له ديناران ربما يحتاجها لبعض الماء.

عاد إلى مجلسه كانت رائحة الدجاج تفوح من بعيد تخترق انفاسه لتطفئ شيئاً من جوعة.

مضت ساعة ونصف استمع فيها إلى كل الانغام التي ارسلتها له الأمواس والشوك والملاعق والصحون ايضاً.

ولكن كل هذه الانغام لم تنسه الهدية التي لم يعد لديه ثمنها.

أتم الرجلان اكلهم غسلوا أيديهم مضمضوا أفواههم من كل ما علق بها من بقايا طعام وتبقى لهم مضمضة خواطرهم تجاهه.

تقدموا إلى الخزينة يتجاذلان ويقسمان على بعضهما البعض لدفع فاتورة العشاء، بادرهما الموظف بالقول العشاء مدفوع التفتا إليه سألوه من استغرب وأجاب الشاب الذي معكم.

عادا إلى الشاب سلما عليه وكأنهم يرونه لأول مره وقال أحدهم ماذا فعلت يا رجل وشكره، رد لا لا شيء واجب بينما اختفت نشوة الشبع من الأخر صاحب الغمزة وبادر بالقول هيا هيا نذهب لقد استغرقنا وقتاً في العشاء.

تقدموا نحو السيارة ركبوها وانطلقت بهم لم يبادر أحد بالتعليق وخاصة من قبل الرجلين الّدين تجنبنا الحديث عن العشاء بل وربما حاولوا كتم تشجؤاتهم ايضاً انتابهمشعور عميق بالندم وضياع فرصة الحديث والتعارف مع الراكب الضيف، قد يكون هذا ما كان يدور في خلدهم.

أما الشاب فقد غلبه النعاس وصار يتمتم بكلمات لم يُفهم منها شيء سوى ترديده لكلمة امي التفت إليه السائق ذَكَّره زميله بضرورة الانتباه للطريق وقال له ماذا فعلنا مع هذا الشاب إنه يردد أمي أمي لا بد أن ورائه حكاية وسالت الدموع من عينيه.

رد عليه السائق لا توقظه عندما يستيقظ سَنُجبر بخاطره ولو أدى بنا الامر إلى تقبيل رأسه.

استمروا في السير وعند أول مطب استيقظ الشاب، لم يمهلاه ولو دقائق للتركيز في الحلم الذي يكاد يضيع منه وعلى الرغم من هذا استطاع جمع خيوطه الحساسة والمؤثرة.

- بادره احدهم بالقول هل نمت جيداً
- نعم
- ضحك ليخفف من السؤال وقال له ولكنني سمعتك تـردد أمي أمي

- أجل أمي تريد أن تصنع مني رجـلا منـذ أن كنـت طفـلاً عندما توفى أبي وهي لا تفـارقني حـتى في أحـلامي، أحبهـا كثيراً منذ زمن لم أُحضر لها هدية
- وهل أَحضرت لها هدية هذه المرة
- نعم نعم إنها بالحقيبة
- ومن يصرف عليكم
- هي .. أقصد أنا اعمل صيفاً أثناء العطلة كل سنة

صمت الرجلان ولو لم تفتح نوافذ السيارة بين الفينة والأخرى لامتلأت بالشجون.

أبطئ السائق من سرعته بعد أن ادرك أنه لا يتوجب عليه الاستعجال بقدر ما يطيل من زمن الرحلة الذي أضحى ممتعاً، وكأني به يصرخ اريد التحدث معك أكثر أيها الشاب الأنيق.

لم يتبقى وقت طويل للوصول إلى العاصمة حيث ادركوا البوابة الأخيرة المحصنة بالعديد من أفراد الشرطة العسكرية الذين يفحصون الداخل والخارج منها، وما ان عبروها حتى عبروا عن ضجرهم منها، الضجر الذي اخفوه بكل البوابات السابقة.

دخلوا العاصمة من ناحية الحي الشرقي لها حيث يقيم الشاب أشار لهم بإنزاله عند الطريق الرئيسي القريب رفضا ذلك وأسروا على ايصاله

إلى أمام منزل اسرته، رحب بهم دعاهم للدخول وأخد قسط من الراحة لديه، كأن شيئاً ما شدهم عن النزول وَدَعاه بسعة صدر وابتسامات على غير ما استقبلوه به وكانت آخر كلمة بينهم ألقى بها الشاب لهم قد يتلقى الرجال بينما الجبال لا تلتقي ابداً تبادلوا التحايا لوَحوا بالأيدي ثم انصرفوا.

آذارالابن رأسه ناحية الباب لِدقه تردد قليلاً ثم دق دقات متوالية كأنه يستعجل من بالداخل لفتح الباب وفُتح الباب وفُتِحت معه ابواب الحب أبواب الشوق أبواب الأمومة بكاء يكاد يدنو من النحيب أحضان تتحول إلى إعصار أطاح بكل مساوئ الفراق وأسبابه أكد أن اللقاء بين الأحبة هو الغالب في النهاية.

جلس بجانب أمه سأل:

أين اخوتي

حالاً سئوقظهم

لا لا تفعلي انا سئوقظهم بنفسي

لعلك ...

لا لا سيكون حلمهم الذي تحقق بمجرد استفاقتهم

ضحكت الأم، دخل على اخوته لم يكن بوسعه الانتظار حتى الصباح أيقظهم واحداً واحداً وسلم عليهم.

أمضى تلك الليلة جالس مع أمه يسأل ولا يدري أنه كرر السؤال العديد من المرات وفي كل مره كان له نفس الوقع فالأحبة لا تمل السؤال عن بعضها البعض وإن تكرر.

أعدت له أمه افطاراً خفيفاً ثم دعته للنوم لكي يرتاح قليلاً، تناول افطاره ثم دخل فراشه الذي اعدته له أمه الفراش الدافئ دون الحاجة إلى أية أغطية والوسادة التي تنقي كل ما يجوب بالعقل وتصفيه وتبعت فيه نوم أهل الكهف نام وأضحى كل من في البيت يمشي على رؤوس أصابعه بعد أن ارتدى أجمل ما لديه من ملابس فاليوم عيد والأم أعدت العدة لإعداد الوجبه الشهية والدسمة لرجل البيت، الاخوات يساعدونها الكل يعمل تحول البيت إلى خليه وامتلئ المطبخ طبخاً وطباخين، استيقظ دون مغادرة فراشه حاول استراق النظر إليهم وسماع بعضاً من حديثهم ليمتع نفسه بمناظر وكلمات ربما هما جزء كبير من دنياه.

عودة الديناصور

يقولون أن التاريخ يعيد نفسه وفي الغالب يقصدون أحداثه التي تعيد نفسها ولو بأشكال أو أنماط أخرى وبأدوات قد تختلف في أشكالها تستخدم لتحقيق ذات الهدف القديم.

وعصراً بعد عصر يجتر التاريخ نفسه عدة مرات في أحداثه، ولكن ماذا عن التاريخ الطبيعي هل يجتر نفسه أيضاً ليعيد لنا من عاش عصرذاك ليعيش عصرنا هذا ولو بهيئة أو شكل جديد أكاد اجزم أن ذلك ممكن بل أكثر مما يجتر أحداثه فنحن نشهد اليوم عودة الكثير من الوحوش الضارية والثعالب الماكرة والتماسيح النادرة التي هجرت المستنقعات لتسكن القصور وتفترش الحرير وتحلق جواً وقد تصل بحراً إلى أي مكان وبنفس واحد، وعلى ندرتها إلا أن تأثيرها كبير وواسع وهي ليست كالوحوش يومذاك التي إن تجنبتها ستدعك في حالك فطبيعة العصر عندئذ كانت تساعد على ذلك أما الأن فأنت مشمول بوحشيتها شئت أم أبيت.

دع عندك التفكير الذي ربما يخرجك من الموضوع أنا لا أبالغ وعرضي ليس سطحياً حتى أن كان كذلك فكر فيما سيئول له أمرك حينما تعود مضغة سهلة الابتلاع أو حينما تشهد عودة الديناصور ولو في صورة امرأة جميلة.

دنيا

لو كانت الدنيا كتاب لكتفيت بقراءة المقدمة ثم الخاتمة أن كان في العمر بقية أما أن أوغل نفسي فيما بينهما فهو العبث بعينه فنحن ننال منها ما نشاء والحقيقة أن كل ما نعتقد إنا نلناه منها هو سراب، ذهب الأمس وحل اليوم وأمرهما بين يدي الله أحياهما كأنهما واحد هم يختلفان فقط في الأحداث التي علي تسجيلها بيداي لتكون شاهداً لي أو علي وبدون توقيع أو بصمة أو حتى شهود سوى ممن هم على يميني وشمالي ولا أراهم ولا يرد لهم شيء.

أن تصيح مليء أوداجك أو أن تُحَدت نفسك بهمهمة لا يميزها غيرك أو أن تُلقي خطاباً لا يتجاوز قفصك الصدري ولا يصل حتى إلى أذناك القريبتين منه كل هذا سواء بسواء كله حديث وكلام ودون الخوض في أهمية ما تقول فإن العبرة بالمُتلقي الذي لن تجد له مترجماَ يوصل إليه ما تعني وتلك هي المصيبة التي ستظل تكابدها وتستفزك بين حين وآخر.

وربما ستفضل خطاباتك الصدرية فصدرك وحده من يعطيك حرية الرأي والكلام والتعبير كيفما تشاء دون أي حرج أو عناء، أضلاعك تهتز فرحا بما يفرحها وستعتب عليك أحيانا وتلتمس لك العذر

أحيانا أخرى تحاورك بكل آدمية واحترام، أما قلبك فلا شك إنه سيرقص فرحا أيضا بهذا المشهد الجميل وسيفرغ ما بجعبته من مكوناته العتيدة التي آلمته كثيرا وحتما أن الدم سيتدفق في كامل الجسم وسيمر على مرشحات تنقيه من الفيروسات الكبتيه لتجعل منه جسما سليم بعقل سليم.

يكتفي فقط بقراءة المقدمة ثم الخاتمة أن كان في العمر بقية.

زمان وإنسان

لن يبوح الغد بسره إلى اليوم ولن تسبق الأحداث زمانها وإن تأخر وما تصبوا إليه قد يكون بعيد المنال فكر وتقدم خطوة لعلك تصيب ليس عليك إلا الزرع والعناية ولا تنسى أنك أنت وزرعك تحت العناية الإلهية يرعاك الله ويرعاه ويقدر لك وله الحياة أو الموت.

الزمان ينتشي بمن يحياه
ويطبع ذكراه على محياه
يقول قد عشت معه وقتاً لن أنساه
كنت في كل حين ووقت أتبع خطاه
أنا في كل مكان وعمري الدهر إلى ما شاء الله
وهو رفيق برهة من زماني فيارب تولاه.

اكسير الطفولة

في يوم ما كان الإنسان ينظر إلى القمر من بعيد ويتغزل به ولم يفكر ابداً في أنه في يوم من الأيام قد يصل إليه وأنه ضرب من ضروب الجنون أن يتحدث أحد عن ذلك ولكن هذا حدث ووصل الإنسان إلى ذلك القمر الثلجي اللون الذي تضرب به الأمثال في الجمال.

أن هذا يفتح الباب لأية أفكار جنونية أخرى قد تخطر على بال أي إنسان.

وما أفكر به قد يوصلني إلى هدفي خاصتاً وأنني امتلك الأن الإرادة للتنفيذ قبل أــن تخور أفكاري وإرادتي واستسلم إلى التردد فالخوف ثم التراجع والتقوقع.

لابد من انقاد ما يمكن انقاده من تردٍ للمشاعر سأتخذ من هذه الشركة المسؤول عنها نموذجاً لإبعاد شبح الإفلاس عنها بالإخلاص في العمل والشفافية التامة ودحر الفساد وهذا لن يتأتى إلا بجعل كل العاملين بالشركة كالمرآة التي تعكس لي كل ما في داخلهم دونما أي عناء بل أني سأوفر على الشركة الكثير من المصاريف التي لا يستهان بها.

يجب أن لا اتأخر غداً سأبدأ، دخلت مكتبي باكراً كالعادة أعلم أن عدد الموظفين والعاملين ليس بالقليل وأن نسبة كبيرة منهم لن تحضر في الوقت المحدد بالضبط وأن كل الإجراءات التي اتخذتها سابقاً لم تُجدي كثيراً خاصتاً وأني في كل مرة أجد نفسي مضطراًلا تخاذ موقف مرن معهم لضرورة استمرار عمل الشركة وهم يعلمون هذا ويستغلونه لصالحهم لاعتقادهم الخاطئ ونظرتهم الضيقة.

دخل عليّ مدير مكتبي دون أن يدق الباب.

- صباح الخير

- صباح النور

- هل تأمرني بشيء

- نعم

- أُريد منك إعداد قرار بخصوص حفل شاي سنقيمه لكل العاملين بالشركة علي ان يتولى قسم الخدمات كل شيء عدا المشروبات الساخنة والباردة فإنها ستكون هدية مني.

- أوو هذا جميل فنحن لم نلتقي منذ فترة

- كما أني أرغب في إعداد قرار آخر بحضر الزيارات داخل العمل وآخر بخصوص دخول الوفود والضيوف من المدخل الخاص للحفاظ على اسرار الشركة.

- حسناً سيدي ولكن لي تعليق بسيط.

- تفضل.

- ما رأيك في ان نصدر القرار الاول ونعلمهم به وبعد تنفيذه نصدر القرارين الثاني والثالث لكيلا نفسد عليهم فرحتهم

- لا مانع من ذلك

- شكرا سيدي هل من أمر أخر

- لا عُد إلى عملك

غادر المكتب هذا المتنصت ولعله وقف قليلا أمام الباب لسماع أي تعليق قد يبدر مني فقد اعتاد التنصت عليَّ خاصتا عندما استقبل ضيوفي وأُجزم ان القرارين الثاني والثالث سيصلان إلى بعض زملائه المقربين حتى قبل القرار الاول الخاص بالحفل .

لم ينتهي دوام هذا اليوم حتى أَحضر مسودة القرارات الثلاث وقعت قرار الحفل وأرجأتُ توقيع القرارين الآخرين إلى موعد لاحق .

لم اخرج من مكتبي اليوم مع علمي بضرورة ذلك إلا اني اشعر أني منهك فكريا وانتظر موعد تطبيق خطتي بفارغ الصبر والتي أمل ان تكون بداية النجاح .

عدت إلى بيتي مساءً وبدأت في تحضير اللازم للنصف الاول من الخطة وهو المادة العجيبة التي اسميتها السكر السحري الذي سأضيفه

إلى كل المشروبات الباردة والساخنة التي ستوزع بالحفل وسأستضيف ربما البعض القليل منهم ممن لا يتناولون أي مشروبات وتدبر امرهم لإطعامهم ما يناسبهم بما يوصل هذه المادة إلى اجسادهم جمعيا لتستقر بها دونما أي ضرر أو إحساس بذلك.

مر الوقت ببطء شديد ولكن في النهاية هاهو أخيراً قد حل موعد الحفل امتلأت القاعة عن آخرها الجميع يسلم علي الجميع الضجيج يملأ المكان الغالبية يتناولون مشروباتهم وأكلهم وهم وقوفاً أنه اشبه بالمهرجان دخلت القاعة رحب بي من كانوا بالقرب من المدخل الذي دخلت منه اتجهت مباشرة إلى المنصة البسيطة التي أًعدت لأرحب بهم والقي فيهم كلمتي، وأنا في طريقي إلى المنصة تناهت إلى سماعي بعض التعليقات والتهكمات من قبل البعض موجزها أنهم لم يتوقعوا هذا الكرم من قبل شركة تترنح وتوشك علي الافلاس ويرد آخرون أن ذلك لا يعنيهم بقدر ما يعنيهم تنفيذ هذه التعليمات الحلوة ويتمنون دوامها دون دراية منهم بما هو قادم.

القيت كلمتي المختصرة وكان في الاستماع إليَّ القليل منهم بينما انشغل معظمهم في ملئ بطونهم التي اعتادوا ملئها بالفساد.

كانت كلماتي كالصوت والصدى صوت يستمعون إليه وصدى في داخلي يقول اسمعتكم الكثير دون جدوى وعليكم مواجهة الفعل ايها الأطفال !!!

انتهى الحفل وأنا في انتظار الغد لانقضاء فترة الحضانة للسكر السحري في اجسامهم لأبدأ النصف الثاني من الخطة.

اثارني كثيراً غياب مدير مكتبي عن الحفل ولكن ما العمل عليَ الاحتفاظ بهدوء اعصابي والتصرف بصورة لائقة لإنقاذ الموقف فكرت في اللقاء به خارج العمل لتناول شيء ما في أحد المقاهي أو المطاعم ولكنني سرعان ما ابعدت تلك الفكرة عن ذهني فأنا لم اعتاد اللقاء به خارج العمل واشعر أن ذلك لن يكون لائقاً بالنسبة لي.

في غمرة هذه الأفكار دخل عليَ مدير مكتبي بعد أن دق الباب هذه المرة دخل معتذراً عن عدم تمكنه من حضور الحفل واستصغر الأمر بعد أن أبديت غضبي من عدم حضوره قبلت اعتذاره ودعوته للجلوس قليلاً دون أن ادري لماذا وفجأةً دق الباب مرة أخرى وإذا بالسكرتيرة تدخل علينا ببعض العصير الذي احتفظت به من الحفل وارادت من مدير مكتبي ان يتذوقه معي بعد أن علمت انه تغيب عن الحفل، يا لها من مصادفة عظيمة شاءت الأقدار انقاذي مما كنت أفكر فيه.

دخلت وهي مرتبكة تحمل سفرة عليها كأسان من العصير يرتطمان ببعضهما وأنا استمع لهما وكأنها موسيقى أحد السيمفونيات الجميلة وضعت السفرة على الطاولة وقالت تفضلا.

من فرحتي نهضت واقفاً وقلت لها

اشكرك كثيراً

لا داعي للشكر سيدي لم أشأ حرمان زميلي بالمكتب من تذوق هذا العصير الجميل لقد انتابني شعور باهر بالحيوية والنشاط بالأمس وشعرت بأنني رجعت إلى الوراء لسنوات

رددت إلى هذه الدرجة

نعم سيدي

تناولت كأسي ووضعته بجانبي بينما تناول مدير مكتبي كأسه وشربه وغادرا مكتبي سويا مددت ببدني على طول الكرسي ووضعت قدماي على مكتبي وتنفست الصعداء فها هي بوادر وتباشير النجاح بدأت في الظهور.

قمت بتوقيع القرار الثاني بحضر الزيارات والثالث المتعلق بدخول الضيوف والوفود من المدخل الخاص بي سلمت القرارين لمدير المكتب أثناء خروجي وغادرت العمل.

عدت إلى بيتي دخلت معملي الصغير فتحت خزانتي الفولاذية أخرجت ذلك الصندوق الصغير والثقيل جداً المصنوع من مادة الرصاص لكي أطمئن على مادتي المشعة التي احتفظت بها فيه، وعلى الرغم من أن وزنها لا يتعدى وزن ريشة طائر صغير وحجمها لا يزيد عن حجم قطره ماء إلا أن نقلها بدون هذا الصندوق الثقيل سوف يسبب مشاكل عدة ليس من السهل التغلب عليها، إن التعرض

لإشعاعها المعزول بواسطة الصندوق يُدخل الإنسان في حالة من الطفولة المفرطة التي لا يمكن التحكم فيها إلا من خلال السكر السحري المكمل لها ودون أن يتأثر عقله الكبير الراجح والذكي لإدراك الأشياء والبث فيها وإنجازها.

إن نقل هذه المادة إلى المكان المستهدف ليس بالشيء الهين وعليَ تدبر الأمر وسأنجح فيه دون أن اتعرض لإشعاعها.

ولم يتبقى لي سوى تحديد ساعة الانطلاق وترتيب المكان.

قمت في اليوم التالي بزيارة البوابة التي يعبرها كل العاملين عند دخولهم للشركة وتكفلت زوجتي بنقل المادة المشعة بواسطة عربة اطفال أعدتها بالخصوص على أن يكون سبب حضورها تأخري في العمل حتى آخر المساء ونَجحَت في المهمة بوضع المادة في المكان المناسب ومن الطبيعي أنني لم أغفل عن تحصينها بالسكر السحري بجرعة بسيطة لا تتعدي الساعة.

ومن الطبيعي أيضاً انني كنت في انتظارها.

في تلك الساعة التي استعادت فيها زوجتي طفولتها كان الباب مفتوح أمامي لسؤالها عن كل شيء في ماضيها أو حاضرها دون أن تدرك ذلك بعد انقضاء الساعة ولكن ومن المؤكد أن وفائي لها يمنعني حتى أنها لم تخشى أو تظن أنني قد أفعل معها شيء من هذا.

أن معملي الصغير هذا هو مركزاً لأبحاث المشاعر المجالات فيه كثيرة جداً والعالم كله في حاجة ماسة لهذه الأبحاث لقد ساءت الأخلاق وقل الوفاء وزادت الخيانة وتوحش الإنسان ضد أخيه وطغت على الناس مشاعر الغضب والعداء فما احوجهم للعودة إلى إنسانيتهم.

ساعة الانطلاق قد دنت كثيراً ولولا ثقتي الكبيرة في عملي ما تجرأت على تطبيقه عملياً إن معادلة تفاعل السكر السحري مع المادة المشعة تعتمد بدقة على عدد مرات التعرض لها وتعمل كالمفتاح الذي يضاء أو يقفل والزمن بما يغطى اقصى فترة للبقاء بالعمل.

اليوم هو الاول الذي سأقود فيه موظفون بروح الطفولة بدأ العمل دخل الموظفون إلى مقر الشركة عبر المدخل الرئيسي لها وسُدت كافة المنافذ الأخرى وكنت قد سبقت الجميع من الباب الخاص استقبلتهم بالداخل دعوتهم إلى اجتماع عاجل لم يتأخر منهم أحد شعرت كأنني في فصل دراسي استطعت ترويضهم وتهدئتهم بتوزيع قطع الحلوى عليهم وإغراء الملتزمين اكثر بالمزيد، شرحت لهم اننا بداية من هذا اليوم سنعمل بجدية ودون إهدار للوقت أو تدخل أي موظف في عمل موظف آخر وأننا سنكون في غاية الصراحة وعدم اخفاء أي شيء مهما كان أو نقترف ما من شأنه الأضرار بالشركة مهما كان صغيراً، وأمرت موظفي البوابة بعدم السماح بدخول أي شخص منها من غير الموظفين.

رحب الجميع بكل تلك الأوامر والتعليمات والتي لم اشك لحظه في تنفيذها الدقيق أنهيت الاجتماع وأمرتهم بأخذ أماكنهم والاستمرار في العمل.

عدت إلى مكتبي وباشرت قراءة عدد من التقارير كانت كلها تتحدث عن الخسائر وقلة الإنتاج والبضائع المعدومة وما شابه ذلك وكلي أمل في ما يناقض هذه التقارير في المستقبل القريب.

وفي أول معاملة مع مدير مكتبي سمعت دق على الباب ولم يدخل أحد.

قلت تفضل

فتح الباب بحذر قصد تقليل الازعاج تقدم نحوي بعد أن اغلق الباب وراءه وبعد أن حياني حاول الجلوس بالقرب مني وربما الاتكاء على كتفي استدركت الأمر واجلسته على الكرسي أمامي واستجاب لذلك بمجرد أن أومئت له بذلك وأشرت إلى الكرسي المفترض الجلوس عليه ناولته قطعة من الحلوى تحدث لي عن خطة للعمل والتي قسمها إلى اسبوعية وشهرية وسنوية وأكد على حرصه الشديد لتطبيقها.

ابديت بعض ملاحظاتي عليها وشكرته واعطيت له الإذن في بدء تطبيقها، خرج مسروراً بعد أن ابديت رضائي عنه.

كانت هذه أول جلسة لي منذ سنوات مع موظف مخلص مائة بالمائة.

كانت الأجواء هادئة جداً في الشركة الكل يشعر بالحيوية والنشاط لم أنسى اثناء فترة الافطار ان غيرت قليلاً في الوجبه إذ ادخلت عليها بعض أنواع الكعك والمحليات اللذيذة ووضعت في أحد جوانب القاعة شاشة كبيرة تبث شريط للرسوم الكرتونية المحببة للأطفال.

قبل نهاية دوام هذا اليوم قمت بالمرور على بعض الاقسام والإدارات لم ألاحظ ما يعكر صفو العمل شعرت أن الجميع يحاولون إتمام مهامهم المناطة بهم في ذلك اليوم دون التفكير في التأجيل كما لم يتقدم أحد لطلب إذن خروج أو إجازة وهذا يحدث لأول مرة إلا أنني واثناء مروري من أمام أحد مكاتب رؤساء الأقسام سمعت صوت بكاء لطفل بالداخل.

- طرقت الباب ودخلت
- صباح الخير
- رد بعبره، صباح النور
- مالك تبكي انت رئيس قسم ولابد من أن تبدو قوياً أمام موظفيك ولا يجدر بك ذلك
- مشكلتي ليست مع الموظفين بالقسم
- مع من إذن
- مع مدير الإدارة

- ما به مدير الإدارة

- لقد تنازعت معه في شأن من شؤن العمل وغير لي خطتي بالكامل وقبلت ذلك

- وما المشكلة إذن

- المشكلة أنه نهرني وقال لي أنه لن يكلمني حتى نهاية دوام اليوم

- اوو هل هذا الذي ابكاك

- نعم

- لا عليك سآخذك إليه الأن لتتصالحا

- حقاً

- نعم هيا

أخذت رئيس القسم إلى مدير الإدارة اجلستهما معاً وقلت لهما أننا زملاء والعمل الجاد الذي تنجزانه دليل اخلاصكم في عملكم أنتما تمتلكان قلوباً بريئة وروحاً زكية هيا تصالحا لم يترددا لحظة تركتهم بالمكتب وخرجت وأنا بالباب التفت إليهما كأن شيئاً لم يكن يالبراءة الأطفال.

عدت إلى بيتي بعد أن خرج جميع الموظفين ارتحت قليلاً ثم نهضت إلى معملي قيمت تجربة اليوم الأول بدأت أفكر في تغطية بعض

الثغرات التي قد تحدث كالاهتمام الزائد بالحلوى لدى الموظفين والبكاء والرغبة في اللعب

وهي أمور تتطلب بعض الخطوات العلمية للتمكن من السيطرة عليها لكيلا ينهار المشروع ويكتب له النجاح.

سأذهب للنوم وفي الغد ربما سأنتظر المزيد في المفاجآت.

نهضت باكراً ليوم عمل جديد في هذا العصر الجديد للشركة وبمجرد دخولي العمل وجدت أحد الموظفين المشاكسين سابقاً وهو يتمتع بعناد لا مثيل له وجدته في مواجهة رئيس القسم توقفت دقائق اراقب الموقف ثم دخلت بسرعة وأمرت الموظف بطاعة رئيسه توقف عن الجدال وعاد إلى عمله بسرعة لم يستطيع مقاومة طفولته.

جلس بمكانة كأنه يفكر باستغراب في تصرفاته أعلم أنه قد تنتابه حيرة أو شيء من ذلك نتيجة للتناقض الذي يعيشه الآن بين شخصيته في العمل وخارجه ولكن هذه الحيرة ستتلاشى دون تصديق ذلك.

بعد اسابيع قليلة وأثناء خروجي إلى السوق صادفت أحد الموظفين وهو يلاعب اطفاله بالحديقة وعند مروري بالقرب منه لم أجد بداً من أن احييه نظر إليَ بريبه وكأنه لم يرني منذ زمن حاولت عدم ابداء أية اشارة غريبة علماً بأني بالأمس عندما شعرت انه ارهق نفسه قليلاً بالعمل استقطعت له جزء من وقته للعلب في فناء الشركة.

ولم تمضي سوى بضعه اشهر حتى بدأت سمعة الشركة في الانتشار والشهرة وبدأ الاعداء يتربصون بها وحاول الكثيرون من أصحاب الشركات الأخرى استمالة بعض العاملين لدي لضمهم لشركاتهم بعد ان وصلتهم اخبار نجاحاتها التي حققتها بزيادة الإنتاج والحد من المصاريف التي كانت تذهب للمراجعين والمراقبين والاستغناء عن منظومة الرقابة وكل الشاشات المنشرة في كافة المكاتب والممرات.

وكلما تعمقنا اكثر في الأداء الجيد ازداد التحدي ولا بد من زيادة الحرص والحذر من أي مفاجآت.

ذهبت إلى مكتبي لأجد امامي ما لم يكن في الحسبان إحدى السيدات وجدتها تجلس أمام مكتبي في انتظاري لا أدري كيف تمكنت من الدخول رحبت بها وادخلتها المكتب جَلَست قلت لها

- كأننا تقابلنا قبل الان
- نعم
- اين ومتى
- هنا في هذا المكتب
- كيف
- لقد جئت منذ حوالي السنتين عندما كنتم في حاجة إلى بعض الموظفين

- آآ فهمت
- ولكن كيف دخلت إلى هنا بالتحديد
- من الباب الخاص لقد مُنعت من الدخول عبر البوابة أن موظفيك يتمتعون بالجدية والصراحة واللباقة أيضاً عدت للدخول من الباب الخاص بناء على توجيهاتهم.
- حسن جيد ولكن تبدين سعيدة ترى ما سر هذه السعادة ولماذا جئت .
- سعادتي لأني وأثناء انتظاري لك أسر مدير مكتبك علي اصطحابي في جولة قصيرة لكيلا يشعرني بالملل جراء انتظاري لك كان تصرفاً جميلاً منه انه ودود ومرح.
- نعم نعم وما الذي وجدته .

وقبل ان تجيب ادركت الخطأ الذي وقع فيه مدير مكتبي باصطحابه اياها في هذه الجولة القصيرة وهو الذي تصرف ببراءته عندما شعر انها قد تمل الانتظار عندما تأخرت قليلاً عن الحضور إلى المكتب خاصتاً أنه لم يتلقى امراً مني بضرورة الحرص على عدم إدخال الضيوف إلى ما هو ابعد من المكتب ولكن لا بأس سأصلح معه الامر فيما بعد.

أجابت وكادت تلمس الحقيقة عندما قالت

- شعرت أنني في روضة أطفال ممتعة يؤدَي فيها العمل بشكل غريب وعجيب جميعهم يبتسمون بل ان احدهم طلب مني قطعة حلوى ان كان لدي بحقيبتي ضحكت وشكرته على مداعبته ووعدته على سبيل المزاح أن أُحضر له في المرة القادمة قطعة منها واستمر في مزاحه بفرحة الشديد اشكرك سيدي على هذا الكادر النادر الذي احسدك عليه خاصتاً أني سمعت اخباراً سارة جداً عن شركتكم، وجئت إلى هنا اليوم للحديث معكم حول امكانية ابرام اتفاق تعاون مع شركتنا.

- لا بأس فكره جيده

شَعرتُ أن ردي السريع هذا اسعدها اكثر وكأنها لم تكن تتوقعه .

- حقاً سوف اعود إلى عملي لأخبرهم بذلك وسنعد مقترحاً للتعاون سنعرضه عليكم في اجتماع نعد له بين شركتينا.

- اتمنى ان يكون ذلك في الوقت العاجل

- شكراً لك سيدي اعطني الإذن بالانصراف

- تفضلي

- شكراً

قمت بسحب ملف العلاقات الدولية للاطلاع على آخر اتفاقيات التعاون مع بعض الشركات الدولية والتي كانت تنظر إلينا على اننا دون مستوى التعاون معهم ونبدو امامها في وضع محرج ولا بد من استعادة

الثقة واستغلال هذه الظروف الجديدة للتعريف بأنفسنا والعمل معهم بندية بل ومواجهتهم وكسر احتكارهم للسوق الدولية.

ليس امامي سوى شخص واحد قادر على تبني هذا الملف لما له من حضوه ونفوذ عند معظم الشركات العالمية والتي لا أدري كيف اكتسبها! الاستغناء عنه مكلف وما أعلمه جيداً أنه غارق حتى أدنيه في الفساد دون أي دليل ضده وربما كان قد اشترى نفوذه لدى تلك الشركات بالمال من يدري ولكنني سأقوم بتكليفه فالأمر قد اختلف هذه المرة.

أمرت بالتباحث مع إدارة العلاقات الدولية بالخصوص وأصدرت قراراً بإيفاد المعني إلى بعض الشركات الدولية لتجديد الثقة واستكمال بعض الاتفاقيات السابقة والتباحث حول عقد اتفاقيات جديدة نحن في حاجة لها.

لم يأخذ الأمر الكثير من الوقت في طريقه إلي التنفيذ حتى غادر إلي عدد من الدول بالخارج بعد أن تمت تلبية كل مطالبه في الوقت اللازم لإتمام المهمة والدعم المالي الكافي.

أحسست بالعودة إلي ماضي الشركة السيئ لأن هناك موظفاً الأن يعمل خارج الشركة بل وخارج الدولة عودته من هذه المهمة ستضيف شيئا ما إلي حساباتي في معاملاتي مع الموظفين وربما تحدث فارق في تحسين أدائهم وإخلاصهم خارج دائرة مشاعر الطفولة للكبار. مرت

أيام دون حتى أي اتصال منه أو اشعار بما قام به، لن ابالي بذلك المهمة ليست طويلة مرت ثلاثة اسابيع علي مهمته حتى كدت انساه ومع بداية الاسبوع الرابع ابلغني مدير مكتبي أن الموظف المكلف بملف العلاقات الدولية عاد من مهمته أبلغته بضرورة الطلب منه اعداد تقرير كامل ومفصل عن سير مهمته من تاريخ سفره وحتى عودته علي أن يعد هذا التقرير داخل العمل وليس خارجه وأن يقوم بإعداد تسجيل صوتي لذلك التقرير بصوته شخصياً يقدم فيه نفسه تم يقوم بقراءة التقرير من أوله حتى نهايته تساءل مدير المكتب عن سبب اعداد هذا التسجيل قائلا.

- ولماذا أُعد له تسجيلاً بالتقرير ما دام سيقدمه مكتوبا وسيوقع عليه.

- لا عليك انها مجرد فكرة في اعداد مكتبة صوتية لا يمكن الطعن في أي وثيقة منها.

- نعم فكرة جيدة سأبلغ الموظف بذلك وفي الغد ربما سأطلب منه الحضور إلي مكتبك لتقديم التقرير بنفسه إلي سيادتك.

- حسناً

وفي الغد الذي حل اليوم حيث صارت الأيام تتوالى دون أن أشعر بها لما فيها من تحدي وانتعاش في العمل وهو اليوم الذي من المؤكد أنه تلى الامس دق باب مكتبي الموظف المنتظر صحبة مدير مكتبي أدِنت

لهما بالدخول جلسا بعد التحية والسلام قدم لي الموظف التقرير والتسجيل وعلي الرغم من أن قراءة التقرير أو الاستماع اليه لن يحدث إي فارق في وضعنا هذا فضلت قراءة التقرير المكتوب وما أن قرأت الصفحة الأولى حتى توقفت عن تتمة الباقي لألي تبدر مني أية علامات تعجب أو يظهر علي ملامحي ما لا يرضي الجالسين معي .

شكرتهم تم منحت نسخة في التسجيل للموظف قائلا له عد بهذا التسجيل إلي بيتك للاستماع له فلربما تكون قد نسيت شيئا وسأكمل قراءة التقرير فيما بعد ولنا لقاء أخر وبعد أن غادرا مكتبي أعت قراءة الصفحة الأولى فالثانية تم الثالثة حتى نهاية التقرير لم استطع التوقف هذه المرة اذهلني الاسترسال في السرد وكأني أقرأ مقالة لأحد الادباء وأذهلتني المعلومات الدقيقة والشفافية المطلقة التي سطرتها يد الطفولة.

عاد الموظف الي بيته وعدت أنا إلي بيتي وصلت إلي البيت منهك وتَعِب استلقيت علي ظهري غفوت تم نمت لم اصحوا إلا علي وجه الموظف وهو يضحك في وجهي شربت شربة ماء حاولت استذكار الحلم بكل قواي العقلية ربطت خيوط الحلم كان أمامي الموظف جالس مع زوجته في بيته يستمعان إلي التسجيل في ذهول وبعد أن أتما الاستماع نهضت الزوجة في اتجاه زوجها قائلتا .

- كيف تفعل هذا ايها المجنون لقد فضحت نفسك .

- لا أدري

- ماذا يعني لا تدري

- كأن قوة اِسْتَنْطَقَتْنِي

- حتما ستفصل وستدمر حياتنا.

- لابد من الذهاب إلي طبيب نفسي.

قال هذا ودخل في نوبة من الضحك كانت نهايتها امام وجهي.

امسكت بالتقرير واعدت قراءته مرة أخرى لقد بدأ بكتابة حتى ما تحدث به مع زوجته قبل سفره واعدادهم العدة لتجهيز نفسيهما للسفر فقد دعاها للسفر معه لاغتنام الفرصة للتنزه ولربما استعادة بعض الذكريات الجميلة وأقاما في أحدث الفنادق وكان جدول الاعمال اليومي للرحلة يبدأ عند الساعة العاشرة صباحا وينتهي عند الساعة الثانية عشر عدا ذلك فإن الوقت الباقي من اليوم هو للتنزه والزيارات والتمتع بأشهى انواع الطعام في افخر المطاعم وخلال الساعتين المخصصتان للعمل والتفاوض مع الشركات تمكن من ابرام بعض الاتفاقيات المهمة التي لن نتمكن من الزامهم بها وعدم التنصل منها إلا من خلال الجهد وتبادل الزيارات وإغرائهم بما وصلنا له من تقدم.

كما إنه لم يغفل عن ذكر الهدايا التي تلقاها وزوجته من تلك الشركات وتعاونه مع بعض موظفيها الكبار بمد الايادي من تحت الطاولة بما يفيد الطرفين لدعم حساباتهم الخاصة.

اني لا أشك لحظة انه كتب التقرير بعمر لا يتجاوز الخمس سنوات قمة الذكاء والإخلاص والبراءة.

لا أدرى إن كان اعطائه التسجيل للاستماع له في بيته كان قرارا صائبا أم لا ولكنني أميل إلي أنه كان قرارا صائبا فهو الرجل الذي لا يمكن استبداله ولابد من تربيته ليستقيم ولن أوقع عليه أية عقوبات سأبقيه في حيرته كفاني أني قمت بتعريته وأنه في المرة القادمة سيحتفظ حتى بتذكرة السينما إذا ما قضى وقتا فيها ولن يتجاوز حدوده لأنه يعلم أنه سيعترف بكل شيء علي طبق من ذهب.

عدت وعاد في اليوم التالي إلي عمله وكأن شيئا لم يكن تابع عمله في توثيق الاتفاقيات ووضع الجداول والخطوات التنفيذية لتطبيقها حسب ما أخبرني بذلك هاتفيا شكرته وشجعته بل ووعدته بمكافأة مجزية في حالة ما تمكن من انجاز عمل ما مميز وما أن أقفلت هاتفي معه حتى فوجئت بطلب الاذن من زوجته للدخول عليَ لم ادري ماذا أفعل، لم أكن مستعدا للرد عليها إذا ما كان حضورها متعلقا برحلتها صحبة زوجها ترددت قليلا تم أذنت لها بالدخول دخلت رحبت بها وجلست تم بدأت في الحديث قائلتا.

- سيدي حضرت إلي هنا اليوم لألتمس العذر منكم عما بدر من زوجي في رحلته الأخيرة.

- لا بأس لقد قدم لي تقريرا مفصلا عن كل شيء.

- أعلم ذلك فقد استمعت إلى التسجيل الخاص به معه في البيت كان تقريرا مخجلا.

- لكنه صادق اليس كذلك.

- نعم أفلا تجازيه عن صدقه بالصفح عنه.

- ومن قال لك أني سأعاقبه.

- حقا لم أنم البارحة ولم اهدأ حتى أني وجدت نفسي مجبرة علي القدوم اليكم لعل الاعتذار يجنبني وزوجي العواقب الوخيمة للتقرير.

- سأدعوه للحضور.

- لا يا سيدي هو لا يعلم شيئا عن زيارتي.

- وماذا في ذلك سيشعر أنك تقفين بجانبه اليس كذلك.

تعمدت هذا للاطلاع أكثر علي تجربة اللقاء مع زوجها بالعمل قمت باستدعاء زوجها وما أن دخل علينا حتى فوجئ بزوجته اتجه اليها وقبل رأسها احسست وكأن تداخل نسبي نادر قد حدث له بين مشاعر الزوجة والأم.

وهو تداخلا يحدث بنسبة ضئيلة جداً ولا يدوم سوى لحظات ولا بد من تداركه مستقبلا ولن اتركه رقما مهملاً وبعد أن قبَّل رأسها جلس بجانبها سألها.

- ما الذي اتى بك إلى هنا اليوم.

- جئت لأطمئن عليك ولأقدم الاعتذار للسيد المدير عما جرى بالأمس.

- حبيبتي انت تبالغين كثيراً ليس هناك أمراً يستحق الاعتذار.

في ذات اللحظة رن جرس هاتفي انطويت قليلا بجانب المكتب لأرد على المكالمة كانت مسامعي منقسمة بين أُذن للهاتف وأخرى تسترق السمع مرغمتا إلى باقي حديثهم.

- ردت اصمت لألى يسمعك لقد اصفح عنك.

- صدقيني كل شيء عادي وليس هناك أي شيء مزعج.

- أمر غريب فعلا ربما سيمهلك قليلا، احذر ثم مالي اراك تبدو لطيفا أكثر مما هي العادة في البيت ابتعد عني واجلس مقابلا لي.

انتهت مكالمتي عدت للجلوس علي مكتبي ابتسمت لها وابتسمت لي وقلت.

- هل كل شيء علي ما يرام.

- اجابت نعم.

أما هو فاكتفى بهز رأسه شكرتهم وأبديت لهم تقديري مع بعض الإيماءات بانشغالي وقفا وطلبا الإذن للمغادرة أذِنت لهما وانصرفت الزوجة وعاد الزوج إلى عمله.

أما أنا فإني لن أتصرف بأكثر من ذلك حتى تظهر لي نتائج عمله التالي بالخارج.

عدت للتفكير في مكالمتي التي وردتني أثناء وجودهم كانت من الشركة التي سبق وأن أرسلت مندوبها للتعاون معنا بعد أن بَلَغها ما وصلنا إليه.

لابد من التجهيز لذلك بما لا يضر بحقنا في الاحتفاظ بأسرارنا وإمكانية الاستفادة والاستعداد للزيارة التي دعاني لها مديرها العام وهذا من حسن حظي لأني سأكون في ضيافتهم صحبة الوفد المرافق لي والذين سيكونون تحت ناضري ومتابعتي ولن يكون هناك ما يثير القلاقل علي عكس ما إذا سيعقد الاجتماع لدينا فلربما يُبدون ملاحظات أو تساؤلات عما سيلمسونه من معاملة قد تثير استغرابهم أما لديهم فإن الأمر سيكون معتاد ولربما أظهر بعض موظفيهم حنكه أو تميز أفضل لا أعلم.

أمرت بتشكيل الوفد من كافة القطاعات والاستعداد للزيارة في الموعد الذي حددته الأسبوع القادم.

حللنا ضيوفا علي الشركة الصديقة كان استقبالهم لنا أكثر من رائع بل أن اخبار الزيارة تم تناقلها عبر وسائل الاعلام قبل القيام بها نظراً لما اكتسبته الشركة من شهرةُ تباحثنا كان أول لقاء عمل مع هذه المجموعة الكبيرة نسبياً خارج الشركة، لقاءاتنا بدت جادة معهم أو

فيما بيننا، استعادت ذاكرتي المشاعر الطبيعية لكل موظف بما تحويه من تناقضات وضغائن لدى البعض بل أن بعضهم يمرق بنظرات شبه عدائية للبعض الآخر وغابت الابتسامة قليلا تمنيت لو أن الحال أفضل ولكن لا بأس وما يهم الأن أننا آخينا بين الإدارات لنبدأ العمل.

تركتهم لأسابيع دون أدنى تدخل في أعمالهم لمنحهم الفرصة للاندماج والتقارب لتحسين الأداء والإنتاج اتصل بي المدير العام للشركة الصديقة متسائلا عن متابعتي لهم، فوجئ عندما قلت له أني تركتهم بحالهم للعمل وسأخذ الوقت الكافي ومن ثم لن يكون من الصعب التعرف علي ما انجزوه وفي أي مسار هو.

استغرب من ردي قائلا ألا تخشى من أنك تمنحهم الفرصة لتمرير أشياء غير مقبولة تتطلب المتابعة اليومية والمستمرة، اجبته كلا لا أخشى ذلك.

احسست أن كلامي لم يعجبه وأُدرك سبب ذلك ولكن ما كان بوسعي فعل أكثر من ذلك.

بعد فترة قصيرة وقبل أن يباغتني مدير عام الشركة الصديقة باتصال مفاجئ آخر بدأت في استدعاء مدراء الإدارات أول بأول للاطلاع علي سير أعمالهم وكنت أولا في استقبال السيد مدير إدارة المبيعات وهو الأهم بالنسبة لي لأن كل حصيلة الإنتاج تورد إليه ويقع

علي عاتقه تصريف الإنتاج والمنافسة به في السوق المحلي والدولي والتنسيق مع مدير المبيعات المحلية ومدير التصدير وهو ايضاً الأكبر سناً والأكثر خبره في مجاله وكان له الأثر الكبير في تحسين وضع الشركة من خلال تباين متطلبات السوق من حيث الجودة والعبوات المناسبة والتناسب الأمثل في أصناف المنتجات ما يلبي حاجة السوق وتفادي الفائض الذي قد تكون له نتائج غير مرضية.

استقبلته في مكتبي واستمعت له لم يكن راضياً وبدأ حديثه قائلا، ان مجال التعاون مع الشركة الصديقة في مجال المبيعات محدود وقد عرضوا علينا توحيد شركات الشحن الداخلي والخارجي ومكاتب التخليص الجمركي في مقابل أسعار أفضل وأيضا ربما وكلائنا بالخارج لتوسعة نشاطهم والبحث عن أسواق جديدة وهذه كلها أمور تبدوا جيدة ولكن معظم مسؤوليهم بالمبيعات يتعاملون مع هذه الجهات في مقابل بعض الإغراءات والعمولات وقبول الهدايا لقد بادرني أكثر من مسئول منهم بهذه المعلومات لإغرائي أنا أيضاً ولعلمهم المسبق أني سأعلم بها إذا ما تم أي اتفاق بالخصوص وقد بادروا بذلك للضغط لغرض افشال أي اتفاق مسبقاً والتحجج بأي شيء إن لم اتوافق معهم وأري أن آفاق التعاون ستكون صعبة إلا أن يكون كل شيء تحت ادارتنا واشرافنا المباشر وهذا لن يرضيهم ولتعلم سيدي أن مسؤوليهم الكبار لا يعلمون شيئا عن هذا وإن علموا فإنهم لن يتمكنوا من

إصلاحه بسهولة الفساد يضرب مفاصلهم حتى النخاع، لقد اسهبت في الحديث معهم وأبديت لهم امتعاضي الشديد ولا أعلم إن كان ذلك بقصد مني أو بدونه ولكنني أؤكد لك الأن ما قلته.

- شكراً لك سأكتفي اليوم بهذا وإن احتجت إليك سأدعوك للحضور مرة أخرى .

- هذا واجبي.

بعد يوم أو يومين دعوت مدير الإنتاج لتقديم تقرير شفهي عن سير عمله فيما يخص ذات الموضوع حضر وتحدث ولم يخرج من السياق حيث قال.

- إن مدير الإنتاج بالشركة الصديقة التي نرغب في التعاون معها يقوم بالتلاعب بالمواد الحافظة للحصول علي الفائض منها ومن ثم بيعه بالسوق المحلي وهذا يقلل من عمر المنتج ويعرضه للتلف بسرعة كما أنه يستبدل الألوان الطبيعية الموردة للشركة بأخرى صناعية ومن تم إيداع فارق السعر في حسابه بالخارج.

- وكيف علمت بهذا.

- لا أدري جلست معه ومن المؤكد انني كنت أرغب في استدراجه للبوح بما ذكر.

- حسناً لا عليك سأكتفي بهذا بإمكانك الانصراف.

- شكراً سيدي.

هذه التقارير الشفهية الموجزة التي استمعت لها كافية لتوضيح الصورة وإدراك الخطر.

إن استدعاء المزيد من الموظفين للاستماع هو مضيعة للوقت ولا بد من إيقاف هذه المهزلة.

اتصلت بالمدير العام للشركة الصديقة وابلغته أسفي عن عدم الاستمرار في التعاون الذي اتفقنا عليه ولم أكن أرغب في ذكر الأسباب إلا أنه اصر علي ذلك متهما اياي أني لم أوفي بوعودي ومذكراً بإسراري علي المادة السادسة في الاتفاق والتي تنص علي حق الانسحاب في أي وقت دون شرط ابداء الأسباب تم قال هل لي بزيارتك غداً صباحاً ليس من اللياقة أن ننهي ما اتفقنا عليه عبر الهاتف رددت عليه معك حق سأكون في انتظارك غداً بمكتبي.

وفي الغد الذي حل اليوم التقينا في مكتبي.

دخلنا في صلب الحديث بسرعة وكأن الوقت ضاق بكلمات الترحيب أو المجاملات.

سألني إن لم أقل هاجمني وهو في بيتي.

- لماذا تعاملت معي بهذه الطريقة؟

- ماذا تقصد.

- علمت في أول اتصال بك عقب الاتفاق إنك لم تكن متابعا بالشكل المباشر اليومي للأعمال المتفق عليها ولم تمضي عدة أسابيع حتى باغتني باتصالك بالأمس لتخبرني عن اسفك لعدم الاستمرار في الاتفاق اريد أن افهم ما الذي جرى بالضبط.

- بإمكانك فهم ذلك من موظفيك.

- لا تتحدث معي بالألغاز.

- أنا لا أتكلم بالألغاز ولكن لكلٍ اسراره ببساطة لقد اطلعت علي كل شيء لديكم ولم يعجبني منه شيء.

- إذن قد نصبت لي فخا اسميته اتفاق تعاون.

- انتم من طلب ذلك ولسنا نحن.

- كنت اعلم أن نجاحكم وراءه ما وراءه.

- ارجوك أنت ضيفي ولا أسمح لك باتهامنا بأي شيء.

- قد يكون هذا درساً لي.

- قد يكون درساً لك فعلا إذا ما تحققت من كل شيء لديك ولكنك ستتعب كثيراً انصحك بانتظار العلاج.

- كلامك كله الغاز أيها الماكر.

جملة استقبلتها ببرودة أعصاب لم أكن أرغب في تصعيد الموقف بيني وبينه توقف وغادر دون إذن واكتفيت بالصمت.

وحال مغادرته امرت بإلغاء الاتفاق والانسحاب منه دون ابداء الأسباب وإبلاغ الشركة الصديقة وكافة الموظفين بالأمر.

لم تمضي شهور قليلة حتى تبادر إلى اسماعنا أن أحد وكلائهم بالخارج دخل في خلاف معهم حول فساد وتخمر كمية من البضائع مما تم توريدها منهم علي الرغم من توفر العوامل الجيدة للتخزين لديه مطالبا إياهم بالتعويض عن الكمية الموردة والضرر المعنوي الذي لحق بسمعته بالسوق والذي استدركه بسحب الكميات المباعة بأقصى سرعة مما جنبه العرضة للملاحقة القانونية في حالة تعرض أي من المستهلكين للتسمم وبدلا من فتح حوار معه لإيجاد حل مناسب يرضي الطرفين دخلوا معه في نزاع قضائي لم يخرجوا منه بسلام.

كما أن اخبار نقض اتفاق التعاون معهم لم تكن محدودة علي الشركتين بل تعدتها إلى معظم الشركات الأخرى المشابهة وخاصة منها الطامحة إلى التعاون معنا والأخرى التي تسعى إلى منافستنا وادراك نجاحنا دون ان تصل إليه.

إن نبش المشاعر كنبش المناجم ان مشاعرنا مناجم إنسانية غنية جداً لا حدود لثرواتها ولا تنبض وهي تتجدد تلقائيا من سيفكر في إن سر نجاحنا هو المشاعر النبيلة التي اضفيتها علي كل الموظفين لدي من حب وتعاون وإخلاص وشفافية لا حدود لها نقاء في العين وفي السريرة

إنه الانسان الغاية والهدف وهو ذاته الأداة إن صلحت صلح وإن لم يصلح سيأكل بعضه ليتهم يعلمون ويوقنون .

توالت الأيام والشهور حتى اني لم أعد اقرأ التقارير المقدمة بل يكفي أن القي بنظرة علي حساب الشركة الذي يتنامى بسرعة وبمعدل ازدياد غير عادي وتم اكتساح السوق وفي المقابل تزايد عدد الشركات المنهارة المعروضة للبيع.

ولكي أطور من عملي لابد من التفكير في التوسع، بلغني أن الشركة الصديقة المتعاون معها سابقا هي علي وشك الإفلاس بعد أن دفعت تعويض هائل لوكيلهم الذي قاضاهم وهي الأرخص من الشركات المعروضة للبيع استدعيت مدير العلاقات وابلغته بإمكانية شرائها

- ما رأيك

- سيدي أنت تمزح

- لماذا

- تعلم أن المدير العام لها قد دخل في مشادة كلامية معك عندما أنهينا الاتفاق وهو لن يقبل ببيعها لنا

- كيف علمت

- انه أمر وارد جداً

- إذن هو امر وارد جداً كما قلت وليس قطعياً .

- نعم ولكن ما الذي يجعلك متفائلا ببيعها لنا رغم ما جرى

- المال

- ماذا تعني الكل سيدفع .

- لن يجد من يدفع أكثر منا .

- سيدي انت مخضرم سأدخل في المنافسة لشرائها باسم الشركة وسأبلغك بأية عراقيل أو شروط .

- حسنا أنا في الانتظار

سأعرض علي المدير العام للشركة الصديقة البقاء فيها علي ان يكون نائبا لي لإغرائه ببيعها لنا وسأتدبر أمره كأحد الموظفين لدى ولن يكون ذلك صعبا .

دائما ما كان تفكيري سابق للأحداث وهذا ما جعل من ردودي مباشرة وسريعة .

سأعود اليوم إلى عملي بالمعمل للاستعداد لأية احتمالات لإعداد اللازم لكيفية إدارة أي شركة جديدة.

وفي يوم حل بعد مرور أكثر من ثلاث أشهر مرت كمر السحاب وجدت نفسي جالسا في مكتبي لاعتماد الكادر الوظيفي الجديد للشركة الصديقة التي أضحت تحت أيدينا.

ولم يبقى امامي سوى حفل الاندماج الذي سننظمه للعاملين بالشركة الصديقة بحضور بعض مسؤولي الشركة الأم وكما هي المرة السابقة سيتناول الجميع السكر السحري والذي سأكتفي به هذه المرة ولن تكون هناك حاجة للمادة المشعة لديهم والتي سيتعرضون لها عند استدعائي لأي منهم بالشركة الأم سأتركهم يعملون بدواتهم كما هي تحت رعاية مسؤوليهم وسأتعامل معهم كما تعاملت مع مدير العلاقات الدولية الذي اوفدته للخارج هم ليسوا ببعيدين عني سأستدعي أيا منهم متى شئت لمكتبي بالشركة ليصرح لي بكل شيء وسنعد محاضر لهذه اللقاءات تحال منها صورة إلى مكاتبهم بمقار عملهم وليكن ما يكن .

بدأ العمل حدثني مدير مكتبي أن الأمور لم تتحسن بالفرع الجديد للشركة كما اسميناه وقال

- انهم مستمرون في عبثهم السابق

- أنا إلى هذه الساعة لم اتابع أي شيء لديهم .

- وماذا تنتظر اخشى أننا تورطنا في شركة ستجرنا إلى الهاوية بعد ما وصلنا له من مكاسب .

- لا تخشى شيء أنا فقط اعطيتهم وقتا لتعريتهم واخراجهم إلى السطح أن لم نفعل هذا فلن نعلم شيء.

- لا ادري كيف تفكر

- هل تذكر مدير العلاقات الدولية

- نعم كان صادقا واعترف بكل شيء ولكنك لم تعاقبه

- وكيف هو الأن

- لقد تغير كثيرا وكأنه اكتوى بذلك التقرير وتلك الأفعال

- هل تظن أن عفوي عنه هو ما غيره .

- أظن ذلك رغم تساؤلاتي الشديدة .

- أنا لا أظن أن عفوي هو ما غيره بل هي الحيرة التي وضعته فيها ويقينه أنه إن أعاد الكره فسيعيد الكره .

- هل فهمت

- سيدي أنت تتمتع بشخصية قوية جداً ترغم الجميع علي البوح بمكنوناتهم .

- أنا شخص طبيعي وعادي وهدفي ليس الاطلاع علي مكنونات الناس أو الموظفين وإنما هدفي الحقيقة التي إن وضحت وضح كل شيء وصار الإصلاح والتقدم سهلاً وميسوراً.

- لي سؤال راودني الأن هل سنشتري المزيد من الشركات

- نعم خلال سنوات قليلة سنتحول إلى شركة عملاقة.

- ولكن ذلك سيتوقف علي مدير العلاقات الدولية والذي سيصل إلى ما أفكر فيه وأتوقعه وإن حدث هذا فإنه سيكون اللبنة التي سنبني عليها كل شيء .

- هل أصبح مدير العلاقات الدولية مهماً إلى هذه الدرجة

- لن تستطيع فهم كل شيء في مرة واحدة رتب لي جلسة عمل مع مدير الفرع هنا بالمكتب وجهز لي كاتبا للجلسة ولا مانع من حضورك معنا .

- حسنا بإذنك

- تفضل

خطر ببالي سؤال مدير مكتبي هل سنشتري المزيد من الشركات إنه يظن كما يظن الكثيرون إن البحث عن المال وبناء الثروة من صميم اهتماماتي وهو هدفي الذي أسعى إليه من خلال اعمال التوسعة وضم المزيد من الشركات ما زلت أعيش حلمي لوحدي حلمي الذي أشعر أنه بدأ يقترب شيئاً فشيئاً .

هاتفت مدير العلاقات الدولية أعربت له عن رغبتي في لقائه كاد يقفل الهاتف ليحضر علي وجه السرعة ولكنني بادرته بسرعة بأني ارغب في لقائه خارج العمل في احد المطاعم للعشاء سويا ولمناقشة بعض الأمور ذات العلاقة بالعمل رحب بالفكرة باعتبار أن ذلك

العشاء عشاء عمل لأني لم اعتد اللقاء بأحد خارج العمل واظنه كان سيرفض ذلك إن كانت دعوتي للعشاء فقط .

التقينا في المكان والزمان المحددين جلسنا لتناول العشاء وبدأنا في الحديث عن أمور من هنا وهناك وشيئاً فشيئاً دخلت في الحديث عن موضوع اللقاء الذي اجتمعنا من اجله كان كلما اجابني عن سؤال بادر بالتعليق على اجابته بدلا من ترك ذلك لي حتى أنه يجيب علي السؤال تم يتنهد ويقول كم أشعر بالسعادة وأنا أؤدي عملي علي هذا النحو.

كانت لا تهمني كلماته التي تتحدث عن الكميات والأرقام والتواريخ بقدر ما يهمني الغوص في مشاعره وما آلت إليه من تحسن إن صراعه مع ذاته داخل الشركة وخارجها شغلاه كثيراً ومن المؤكد أن كل من مر بنفس التجربة من العاملين قد شعروا بذلك ولو من خلال ما كانوا يسرقونه أو ما كانوا يتقاضونه من رشاوي وفقدهم المفاجئ لها دون مبرر واقعي مقنع بالنسبة لهم .

أما هو فقد وقع فيما اوقعته فيه لاستخدامه كنموذج وهو يبدوا لي اليوم أكثر إنسانية مما يعني أني في الطريق الصحيح للوصول إلى الهدف، إن الصراع بين الخير والشر لن ينتهي بداخله إلا بمحاصرة الشر وتوجيهه نحو خلاياه لتأكل نفسها وبقدر نجاحنا في ذلك نستطيع القول أن الخير سينتصر في النهاية .

نبهني مدير مكتبي إلى أن موعد جلسة العمل مع مدير الفرع قد حدد لها يوم الغد وفي الغد الذي حل اليوم كنت في انتظاره،حضر وهو الذي تناول السكر السحري منذ فترة وسيرتدي عباءة الطفولة قبل دخوله لي بدقائق اثناء مروره من خلال المدخل الخاص بالموظفين الذي اضحى واحداً منهم وأنا في انتظاره أشعر بالشوق للاستماع له ورغم يقيني أني سأسمع الحقيقة إلا أني أخشى الاستماع إلى حقائق غير متوقعة .

حل الموعد دخل سلم وجلس صُحبة مدير مكتبي وكاتب الجلسة الذي اختير بعناية وتم تكليفه من قبل الإدارة القانونية بالشركة. جلس مسترخيا بكرسيه وكأنه في جلسة علي أحد الشواطئ مبتسماً وينظر إليّ بعينان ضاحكتان ثقته في نفسه تبدوا عالية جداً إنه يؤدي نفس مهامي بالشركة الفرع .

لدقائق ساد الصمت وغلبت لغة الأجساد وكأننا في انتظار فنجان القهوة لنبدأ الكلام الذي ما أن حاولت التفوه به حتى دخلت علينا مرصعتا ببعض الحلويات الشرقية اللذيذة، أضفنا إلى الصمت صمتا أخر لتناول بعض الرشفات من القهوة وتذوق الحلويات الجميلة .

بدأنا الكلام بتوافق غريب في ذات اللحظة مما جعل الحديث يبدأ بالضحكات المتبادلة اعطاني الاذن بالبدء بالكلام شكرته بدأت كلامي بكلمة الحقيقة .

الحقيقة اني دعوت إلى هذه الجلسة للاطلاع علي سير اعمالكم في هذه المرحلة الجديدة بعد أن اصبحتم جزءً منا.

أجاب بادئاً بنفس الكلمة حينما قال

- الحقيقة يا سيدي أن الأمور ساءت اكثر من سابقاتها

- كيف وما هي مهامك انت ألا يجب أن تضبط الأمور.

- كيف لي أن اضبط الأمور وأنا مشاركا فيها

- مشاركا فيها!

- نعم

قال نعم بعد أن كرر النون عدة مرات ومادا ً يداه إلى المزيد من الحلويات ادركت الأمر وانهمرت عليه بالمزيد من الأسئلة التي أوضحت لي كل كبيرة وصغيرة وسط ذهول مدير مكتبي وارتعاش ايدي كاتب الجلسة من هول ما كتب من حقائق .

في نهاية الجلسة تم التوقيع علي محضر الجلسة من قبل مدير الفرع وأُحيلت نسخة منه إلى إدارة الفرع وبدأت مهامي في متابعة سير الاعمال معه وكانت هذه أول الخطوات.

أحدث ذلك التقرير في اليوم التالي هزة كبيرة بالشركة الفرع أن لم اقل زلزال وأصبحت كل رؤوس الفساد تترنح وتهدد بعضها البعض وتفكر في كيفية حماية نفسها ، أصبح مدير الفرع مهددا من قبلهم ،

ابلغني أنه لا يدري كيف افصح لي عن كل هذا في أول زيارة له علي الرغم من شعوره بالارتياح النسبي طالبا الحماية والعفو وأنه سيضع يده في يدي .

اعلم اني بإمكاني حمايته بكل بساطة وسأثير المزيد من البلبلة التي ستؤدي إلى هدوء الأوضاع ووضعها في نصابها سوف لن اتخذ عقوبة ضد أحد وسألزم الجميع بتسوية أوضاعهم عبر الإدارة القانونية بالشركة بعد أن ادعوا كل رؤوس الفساد للحضور للاجتماع بها مجتمعة بمكتبي بالشركة الأم .

وما أن دعوتهم للاجتماع حتى تقاطر علي المكتب جميعهم في الموعد المحدد جهزت لهم ما يكفيهم مما يشتهون وبدأ الصراع ولم يكن صراع تهديد بل اضحى صراع الحقيقة الكلمة التي بدأت بها كلامي في لقائي مع مديرهم والتي بدأ بها رده ها هي الأن تتحول إلى محور صراع بين اطراف كانوا قد غيبوها وحاولوا طمسها والقضاء عليها لتسود شريعة الغاب .

جلس الجميع لم انطق ببنت شفه تقدم أكبرهم سناً طالبا الاذن للحديث اومئت له بالبدء في الكلام أخرج ورقة من جيبه وكأنه سيلقي ببيان لم أرى في وجهه تلك الملامح التي اراها علي الاخرين ربما لضخامة جسمه وبالتالي تأخر استجابته بدأ قراءته قائلاً سيدي المدير العام قد تبادر إلى علمنا اخبار التقرير الممهور بتوقيع السيد مدير

الفرع وما احتواه من أكاذيب وتزييف للحقائق وبيانات مضللة كان القصد منها القضاء علي الشركة...

لم يكمل قراءته سكت مرق بناظريه إلى زملائه الموظفين بادلوه النظر احمر وجهه طرقت بيدي علي المكتب قلت اكمل لم يكمل ادركت للحظات ان هذا ما اتفقوا عليه مكتوبا قبل حضورهم قلت له اعطني هذه الورقة سأكمل قراءتها بنفسي استلمتها نظرت في وجوههم قبل ان ابدأ في القراءة ود بعضهم لو اخفى وجهه عني احمرت وجوه واسودت وجوه وما أنا إلا عبد مثلهم القيت بنظري علي البيان تجاوزت الاسطر الأولى التي احتوت اتهام مدير الفرع بالأكاذيب وتزييف الحقائق إلى ما بعدها قرأت في صمت أن الهدف مما ورد في التقرير هو مؤامرة ضدي للاستحواذ علي منصبي وانه يعمل في الخفاء مع جهات خارجية وانهم سوف يكونون عضدي ويدي اليمنى التي سترده عن كيده بل وسحقه سحقا وهم في انتظار إشارة مني وختموا بيانهم بالمبايعة والولاء والطاعة وإلى الامام.

طويت الورقة الممهوره بتوقيعاتهم جميعا رفعت رأسي نحوهم فوجئت بالبعض منهم وقد نزلت الدموع من عينيه زادت كلما وقع عليها نظري إنها رحلة العودة إلى الصفاء وصلتني من كلن منهم رسالة مفادها انهم نادمون وبالحزن يشعرون وللعفو طواقون كنت ارغب في انهاء الاجتماع أو الحديث معهم دونما أي تعليق، وقد فعلت ذلك.

عادوا في اليوم التالي إلى أعمالهم دون أي صخب وصلتني بعد فترة مؤشرات من العاملين المنطوين تحت قيادتهم بتحسن كبير في الأداء وحصولهم علي بعض حقوقهم التي ما كانوا يحلمون بها .

لم يعد هناك صعوبة كبيرة في المتابعة والتوجيه والسيطرة بالنسبة لي واضحى العمل يسير بانتظام نحو التقدم واستطعنا ضم العديد من الشركات الأخرى بل وفي شتى التخصصات بقيادة مسئولين كأنهم امتلكوا سري دون ان يمتلكوه بعد ان مروا علي نفس المخطط وبعد ان تم اقحام بعض الشخصيات معهم ممن رفع عنه الغطاء لقد اثبتت التجارب ان الانسان الباحث عن الثروة وسبل الحياة الكريمة عليه البحث عنها في ذاته أولا فإن وجدها استطاع امتلاك كل شيء وما الفارق بين الشعوب المتقدمة وتلك المتخلفة إلا بقدر ما امتلكوا من ثرواتهمالذاتية الكامنة فيهم والتي بدونها لن يكون هناك أي قيمة لأي ثروة امتلكوها في ارضهم أو بحرهم أو حتى سمائهم .

أمضيت سنوات مع مدير مكتبي حتى صار بإمكانه إدارة مجموعة الشركات التي امتلكناها واشعر اني بحاجة إلى شخص يستلم مهامي، دائما ما كان يتبعني شعور التجديد والتطوير تذكرت انه كان قد حدثني عن قرب الانتخابات الرئاسية للدولة ومحاولة بعض الأحزاب الاتصال بنا للحصول علي دعمنا لها بالأموال وبما امتلكناه من ثقة لدى العامة لم أرد عليه حينها، أعلم أن السياسة هي ما يُسير الاقتصاد

ولكن الاقتصاد هو المنفذ الأهم للوصول إلى عالم السياسة توهمت للحظات اني اجلس علي كرسي الدولة بدلا من هذا الكرسي الذي اجلس عليه ما الذي كان بوسعي فعله لو أن ذلك تحقق كيف سأتعامل مع رئيس الوزراء والوزراء وأصحاب المناصب السيادية وما شابههم هل سألقي بالحلوى علي المتظاهرين أم أطعمها لهؤلاء في مكاتبهم كي لا تخرج مظاهرات هل اجعل من السكر السحري لقاحا للأطفال الحقيقيين ليمد في براءتهم وصدقهم بقية أعمارهم .

في الشركة اتعامل مع اشخاص كلن منهم يعلم ما يعمل، في الدولة سأكون في مواجهة الجهل كيف سأتعامل مع أطفال جهلة .

لابد من زرع بديل عن هذا المحصول القدر!!!

انه لا يسمن ولا يغني من جوع ولن يصنع التقدم.

الاندماج

عندما يصل المجتمع إلي حالة من الاندماج التي تشبه الاندماج النووي للنويات وعندما تصل درجة حرارة المادة إلي أقصاها فإنه من المفترض أن تتولد أقصى طاقة للمادة التي من الممكن أن تدمر أمامها كل شيء إلا أن المجتمع الذي تحدث معه ما يشبه حالة الاندماج في المادة والذي يمثل افراده في هذه الحالة النويات في المادة يحدث معه عكس ذلك تماما ويصبح عرضة للتفكك والانهيار وتضمحل طاقاته إلي أدناها وربما ينتهي تماما .

فنحن لسنا جوامد، نحن نمتلك مشاعر وأحاسيس وما إلي ذلك مكونتا فينا ما نسميه الانسانية المشتقة من كلمة إنسان فالاندماج هنا وأعني داخل المجتمع لا يمكن أن يأتي بأية نتائج إيجابية وهو مجتمعيا يعني حدوث اقصى درجة من المساواة التي ربما تختل فيها العلاقات بين افراده بحيث يتطاول الصغير علي الكبير والتلميذ علي الاستاذ والعامل علي رب العمل وربما ايضا يتساوى الجاهل مع المتعلم وهذا مستحيل وفيه فساد كبير وهو ندر خطير تحتار فيه العقول ومنه تطير الي فضاء خال ليس له نضير تائه وسط صحراء إن سِرت فيها أو جلست فستلقى نفس المصير.

عجبا لقوم يدعون الجاهل فيهم بكلمة يا أستاذي عجبا لقوم يتدافعون للسلام بحرارة وابداء التقدير والاحترام الجاهلي للهوامش للأوراق اليابسة التي يعلوها الصفار الاشبه بالصديد ويُعرِضون عن أساتذتهم، الاوراق الخضراء اليافعة التي تكسوها حبات الندى والتي تشاركهم في بت الحياة وزيادة الاكسجين في الهواء الذي يتنفسونه .

إن التفكير بعمق احيانا يزيد من الطين بله ويضيف إلي المآسي والعلل علة فكلما فكرت بعمق أكثر ازدادت الفجوة بينك وبين بني الملة .

اطفئ الاضواء واسدل الستار انتظر قليلا تم اضغط علي الزر من جديد لعلك تدرك الصباح.

الثالوث

قد تنقلب الأمور وينهار ما بَنيتُ لسنين طويلة ويبقى ويستمر معي ما كنت أظنه رخواً هزيلاً وقد اختلف مع زماني واتهمه بالمؤامرة ضدي فقد يبدي لي الثواني أو الدقائق سنوات لا تبارحني أو أن الأشهر والسنين طرفة عين قُطعت ولا أدري إلى أين غادرت وأين تلاشت وكيف مرت كلمح البصر.

والأهم والغريب في آن واحد عندما يمتزج الزمن مع المكان والحدث ليشكلوا الذاكرة التي قد ترجع إلى أي لحظة شكل فيها هذا الثالوث شيئاً قد يعني لنا الكثير وليس هذا فقط بل أننا قد نتعامل مع كلن منهم ونتقبله بسرور وحب على الرغم من ارتباطه بالآخرين فعندما نزور المكان تتجدد لدينا كل تلك المشاعر الجميلة ويبدوا لنا في أبهى صورة ونسترجع ونجتر معه الحدث والزمان كما أن الزمان يظل عالقاً عابثاً بالذاكرة ولن تجد لها مستقراً إلا حينما تتذكر أن التاريخ المقصود قد مرت عليه عشرات السنين وما تاريخ اليوم إلا شبيه لذاك أما الحدث فهو سلطان الذاكرة لا يبارحها موغلا في مد جذوره فيها وهي تزهوا بذلك وتفرح فهو كنزها الثمين الذي يضفي عليها السعادة دون الحاجة إلى أي جليس.

وهكذا تظل الذاكرة المسكينة الملهوفة إلى عودة تلك الأيام تلهث بين الزمن والحدث والمكان.

وكثيراً ما تتساءل - أي الذاكرة - بأن هذا المكان يشبه ذاك وهذا الإنسان الذي مر أمامي الآن اعرفه ولا ادري أين تقابلنا وان ما قصه عليا فلآن ليس بغريب علي دون أن تدري انها على مشارف الهوس الذي ربما يؤدي بها إلى الفصام فذلك الثالوث ربما يفعل فعلته ويؤديها رغم حبها له.

إن الذاكرة تبعث الحياة في الإنسان وتجدد فيه الأمل لصنع ذكريات أخرى جميلة وإن ما سأقدم عليه في الغدوأخطط له الآن قد تحقق فعلاً وأصبح ذكرى ستؤنسني ولو بعد حين.

الايام تتقلب وتتغير كما تتغير الأقلام يبد الكتاب فلا قلم يدوم فإما أن يسرق في غفلة أو يتهالك قبل أن يكمل مهامه أو أن يظل مكابداً حتى يجف كما أن تلك الاقلام لا تكتب بنفس النمط وأحياناً تأبى تسجيل الحقيقة إما خوفاً أو نفاقاً وقد تُكسر وهي متنوعة الأفكار والآراء وتبدوا في صراع فكري وثقافي كبير وقد يبدو قلم الخضار أحياناً أفضل منها.

وتبدو غير قادرة علي فك طلاسم الزمن ولا على التعامل مع الأحداث وما تؤتي به من ثمار محرمة أو فيها شفاء للناس أما الأماكن فهي قد لا تشكل لديها أي شيء فهي تسرح وترعى حيث ما وُجدَ المرعى وإن كان في أقصى الدنيا .

الجدار السياسي

جدار قديم ربما بنته إيطاليا في قلب العاصمة طرابلس التي اتسعت حتى لم يعد لها قلب.

جدار طُليَ جلده المتهالك بالبياض دون المساس به أو ترميمه لكيلا تتغير معالمه التي ارادها بَانِيه، كان ذلك في أحد الأعياد الوطنية .

بعد سنوات طويلة وبعد كل هذه المتغيرات قادتني قدماي لأمر أمام هذا الجدار الذي يبدوا أنه استطاع احتواء واختزال كل المتناقضات التي مرت على ليبيا حتى الآن وما أن خطوت الخطوة الأولى أمامه وألقيت بناظري عليه حتى وجدت نفسي أمام جدار ينطق بما عليه من كتابات تكدست فوق بعضها البعض منها ما يدعوا إلى السير يميناً والأخرى يساراً ومنها ما يدعوا إلى التحليق في السماء مع بعض الأدعية لصلاح الحال أو الترحم والاستغفار للشهداء.

تجتاز هذا الجدار وتشعر انك تلقيت درساً في التاريخ وينتابك شعور غريب بأنه هو من يقف حائلاً بين المتخاصمين الذين عبروا عن آرائهم عليه لألى يتفقوا ربما إخلاصاً منه لأجداده الذين بنوه وكأنه في حالة دفاع عن النفس يسمح لك بالكتابة عليه بما تشاء لنقلها وبوجه

السرعة إلى الطرف الآخر ليرد عليك من خلاله أيضاً بما يشاء دون أن يسمح للطرفين بالالتقاء لكي لا يهدم.

ويبدوا أنه مطمئن بدرجة كبيرة فحالما تنتهي من السير أمامه لن يتركك بحالك بل أنه سيرسل لك بعدة رسائل تستفزك لتدخل في حوار مع نفسك تحدثها وتشكوا لها هذا الذي ينتصب على قارعة الطريق فتحيا دون أن تجرؤ على اقتلاع ولو حجر بسيط منه.

قد تحالف المكان مع المصالح والزمان واضحت المبادئ سراب ودخان ينفث في وجوهنا وانوفنا فنختنق به ونكتم أنفاسنا لنتراجع وكأننا لم نكن نحن من كان.

لن اصدق ذلك ولن تردوني عن مبادئي ما زلت أذكر تلك اللحظات التي تجمعت قطرة قطرة وصنعت زمناً ربما احتاج إلى دهر آخر لكي يعود تباً لكم خذلتمونا وسرقتم منا الحلم قد مللنا الانتظار وما عند الله ليس ببعيد.

الروح

السر الأكبر في الانسان هو الروح وهي باقية فينا بشروط ولا أحد يتحداها فإما أن تنصاع لتلك الشروط أو تغادرك علي الفور تتركك في أصعب اللحظات أحيانا وأنت تستجدي بقائها ربما لتكمل مشوارك أو لتطمئن علي حبيب فأنت إنسان تحب وتكره وتخاف أما هي فهي من إذن ربي تُأمر بأمره وتبقى بأمره ليس في جسدك أنت فقط بل في كل كائن حي وحينما يوارى جسدك الثرى تكون قد غادرت وصعدت إلي السماء إلى العلى ولن تُدفن معك أيها المسكين الضعيف من تظن نفسك في هذه الدنيا أنت فيها تحتَ الرقيب الأعلى سبحانه قد قيل لك أنها دار فناء وكأني بك لم تصدق ذلك.

الطابور الاحمر

يشتد الزحام وتتعدد القوائم ويكثر التفاخر بين المتواجدين عمن أتى باكراً أو من قضى ليلته نائماً أمام القلعة المالية البنكية الموقرة.

حيث يتقدم اصحاب الأرقام الأُول في القائمة لمقدمة الطابور ليكونوا أول الداخلين إلى حرم المذلة والهوان حتى أنهم يهرولون إلى الشباك داخل المصرف خوفاً من بعثرة الأوراق هذا إن كانت هناك سيولة كما يسمونها أما إن لم يكن هناك سيولة فإن فرداً من أفراد الأمن يخرج للناس من خلال الشباك الحديدي الفاصل بينه وبين الناس ملوحاً بكلتي يديه أن لا وجود للسيولة في ذلك اليوم وهو المشهد المتكرر في كثير من الأحيان حتى أن بعض الناس البسطاء والذين تنقصهم لغة الإشارة يعتقدون أنه يحييهم من داخل المصرف وربما وراء تحيته بشرى لهم تهون عليهم مشقتهم ووقوفهم في الشمس والعراء وخاصتاً ممن قضى ليلته أمام القلعة وما هي إلا لحظات حتى يُفهم المقصد من قبل الجميع لتُضرب الأكف على بعضها البعض وتتناهى إلى المسامع الدعوات على من كان السبب في هذا العناء والبلاء ويعود الجميع إلى ديارهم البعض منهم استقل سيارة نقل إي فيكو دون أن يدفع ثمن ركوبه معتمدين على نخوة سائقي تلك السيارات وكرمهم وتقديرهم لجيوبهم الفارغة.

والمشهد لم ينتهي بعد فلحظة رن جرس البيت للدخول وفتح الباب من شأنها أن تنقل كل ذلك التجهم والملامح السيئة البادية على الوجه إلى كل من في البيت أُماً وأولاداً، ولكي يقضى رب البيت العائد من المصرف خال الوفاق على كل تلك السحب السوداء التي أبت ان تمطر ربما يتجه إلى جهاز التلفزيون وهو الجهاز الأقرب إلى النفوس في كل البيوت وبكبسة واحدة تظهر له قائمة بكافة القنوات وفي اسرار غريب يأبى إلا أن يختار أحدى القنوات المحلية ولا أقول الوطنية ليظهر له على شاشتها وهي ليست صدفة أحد المهتمين بالشأن الداخلي وعلاج كافة مشاكله وفك عقدة أو شفرة الشأن السياسي والاقتصادي والاجتماعي وهم كالمسبحة لا يمكن فصل أحداها عن الآخرين.

تظهر تلك الشخصية بربطة العنق الجميلة تملأ الشاشة من أحد العواصم العربية أو الأوربية دون أدنى أمل في أن تظهر لنا من أمام أحد المصارف لتتحدث عن الوفاق والنصاب والمعارضين والمقاطعين والتطرف والجماعات ومعاناة المواطن التي لم يشعروا بها أبداً وحتى إن تحدثوا عنها فإنهم في الواقع يعملون ضد ذلك في مشهد غريب تمارس فيه كل الحيل السياسية في صراع لا غالب فيه ولا مغلوب ليُطحن فيه المواطن ويجزأ الوطن ومحاولات كثيرة لبيع ترابه دون دراية منهم أنه غير قابل للبيع حتى لو كان صحراوياً قاحلاً فأهله لن يبخلوا عليه بالسقاية كلما احتاجها.

تظهر تلك الشخصيات تردد كلاما لا يسمن ولا يغني من جوع وعليك مشاهدتها والاستماع إليها من بعيد لألى تطالك الروائح الكريهة للخيانة والجهوية والقبلية والأطماع الرخيصة على حساب الوطن والمواطن.

اقفل التلفاز وفكر في يوم جديد ربما تتوفر فيه السيولة.

لا تتنهد كثيراً لكي لا تضيع أجرك وأذهب إلى قيلولتك.

فجأة طرقت الزوجة الفاضلة الباب ودخلت وبين يديها صديقتها وجبة الطوارئ المكرونة التي يعشقها الليبيين والتي توصف بأنها صديقة المرأة وهي الآن صديقة الفقراء فرح بتلك الوجبة وملأ بطنه منها بعد أن كاد ينسى غذائه ونام بقية يومه فهو على موعد مع ليلة جديدة وصباح جديد أمام المصرف ليجرب حظه مع السيولة لم يكن نومه هادئ فهو لم يتعود النوم وهو مفلس.

في اليوم التالي باكراً جداً وقبل الفجر بساعات قليلة كان هناك ظناً منه أنه سيحصل على التراتيب الأولى بالقائمة إلا أنه فوجئ بأن رقمه يتعدى المائة تساءل قائلاً متى أتى هؤلاء رد عليه النائمون أمام المصرف، البارحة بعد صلاة العشاء حيث بدأ الناس يتوافدون للتسجيل بالقائمة همهم وقال لقد اتيت متأخراً تحسر ولم يجد جواباً سوى قوله يلا كل يوم الواحد يتعلم حاجة جديدة.

وانتظر مع المنتظرين وشيئاً فشيئاً بدأ ينقشع الظلام في مشهد كأنه صراع بين الضياء والظلمة حتى بدى شعاع الشمس يظهر كالخيوط الضوئية من أقصى الشرق وبدءَ التآم الطابور بعد ان كان الناس موزعين هنا وهناك وذلك بعد أن بدأ المنادي ينادي وفي يده القائمة ان هيا هلموا إلى اخذ اماكنكم في الطابور فموعد افتتاح المصرف قد قرب وان موظفيه بدأوا في الدخول من الباب الخلفي ووصلت سيارات الشرطة والأمن بزيهم وملابسهم المتنوعة واسلحتهم البادية للعيان.

تجمهر عدد من الناس أمام باب المصرف في ازدحام غير مقبول رغم انتظام الطابور المسنود على امتداد الحائط المجاور لباب المصرف والمقابل للشمس وعلى ذكر الشمس وهي دائماً ما تؤخذ كرمز للحرية وإنها تشرق للجميع إلا أن حرارتها بدأت في الارتفاع وبنظره إلى الطابور فلا يوجد إلا شخص واحد رافعاً مظلته فوق رأسه التي احضرها معه اتقاءً لحرارتها وقد شاركه البعض ممن أمامه أو خلفه فيها أما البقية فقد أمسك بعضهم بقطع من الكرتون الملقى أمام المصرف واضعين إياها على رؤوسهم بعد نفضها لإزالة الغبار أو التراب منها وآخرون اختاروا أن يقفوا في الطابور دون أن يمسكوا بأي شيء ولكنهم اعطوا بظهورهم للشمس في نقد لاذع لها بأن بزوغها قد اجبر الظلام على التلاشي ولكن هذا لا يعني أن تحرقهم.

وأخيراً بعد سويعات من الزمن الذي لا قيمة له رن الجرس بإشارة من الحرس وانتبه الجميع واستمعوا إلى صوت أحدهم أن انتظموا وتراصوا مما يعني أن السيولة موجودة تحرك الجميع في تململ جماعي وازدادوا التصاقاً بعضهم ببعض خوفاً من تسرب البعض بينهم.

ظهر الأمن والحرس بعد فتح باب المصرف الداخلي ثم الخارجي فتحا جزئيا وتعالت اصواتهم لمن لم يلتزموا بالطابور ان تراجعوا وإلاوإلا دون وضع خطة لإبعادهم وضمان حق المصطفين بانتظام رجالاً كانوا أم نساء أن المشهد يبدوا فوضوياً للغاية وقد يستمر لمدة ساعة، وساعتين بعد الفتح دون ان يدخل احد وخلال هذه الفترة يبدو أن الصكوك أو الشيكات المميزة تنساب تلقائياً للداخل لتخرج أوراقاً نقدية لأصحابها دون ادنى عناء لتجد نفسها في جيوبهم أو حقائبهم دون ان يكلفوا انفسهم احياناً حتى النزول من السيارة المكيفة والشمس ما زالت تشع وتزداد اشعاعاً لتظهر الباطل للعيان ولتحرقهم ايضاً وهي بهذا تجمع بين نقيضين لأمر ما في نفسها.

يتدافع الرجال في طابورهم وتتدافع النساء في طابورهن ويبدأ ادخالهم مجموعة من هنا وأخرى من هناك ومناظر مؤلمة لرجال ونساء كبار السن يستجدون شباباً في أعمار ابنائهم وتستمر المعاناة ويستمر الألم إلى حين الحصول على المبلغ النقدي المحدد تلك الوريقات التي تضمد الألآم والجراح إلى حين، كل هذا يجري على المسرح الظاهر

للجميع أما خلف الكواليس فإن الأمر أَمَر وأشَد إيلاماً حيث يصطف الطابور الاحمر الذي يقف فيه اصحابه بعيداً خلف المصرف أمام الشباك الخاص بهم المطل على الخارج وكأن الأمر مقصود مراعاة لشعورهم لألى يمرقهم أحد معارفهم مما قد يسبب لهم احراجاً بوقوفهم فيه انهم كلما وصل أحد منهم الشباك يبدأ في رحلة البحث عن الذات التي احتار في كيفية المحافظة على كرامتها وطهارتها وانتقاء افضل العبارات التي تفي بالغرض للتحدث بها مع موظف الشباك دون أي مساس أو خدش لها، ولكن كل ذلك لن يجدي شيئاً فالقيمة النقدية التي ستمنح لك عليك قبولها على الرغم من ضآلتها وانت تعلم والكل يعلم انها لا تكفي حتى ليوم واحد، عليك ان تتذكر انك تقف في طابور للإغاثة بغض النظر عن الأسباب التي جعلت حسابك خاوي من أي قرش فالعتب ليس عليك ولا على الموظف ولا على حسابك بل على الشمس التي تحاول كل يوم الرفع من درجة حرارتها تدريجياً من الصباح حتى الظهيرة لتصل اقصاها لعلها تشعل اللهب ويتحول الطابور الأحمر إلى لهب احمر يحرق الظلم ويزيل الأسباب لكنها فشلت في ذلك لأنكم فضلتم الذوبان عن التحول إلى شعلة لهب تستعيد الحياة بكرامة.

وحيث أنني أعلم مدى تعصبكم وجهلكم وقبليتكم وأنانيتكم وعدم قدرتكم علي صناعة الحياة فإني اقترح عليكم

حلاً يغنيكم عن كل هذه الدماء والبغضاء ويسهل عليكم حياتكم ويشل أفكاركم الرديئة ويبعث فيكم الحياة التي فقدتموها .

لذا فإني قررت أن انصب عليكم رئيس كرتوني حديث ومتطور وحسب المواصفات والمقاييس المطلوبة لتلبية كافة رغباتكم .

رئيس كرتوني لا يشبه تلك العرائس التي تحركها خيوط مخفية وراء الستار .

رئيس متطور جداً ديجيتال وبكبسة واحدة يستطيع تغيير جلده كما تشاءون ويخطب الخطبة التي ترغبون وتريدون بل وبالإمكان تسلم أجهزة تحكم توزع عليكم جميعا لتختاروا أي نوع من الحكم ترغبون فلديه كل أنواع الديمقراطيات ويمتلك أنواع من الديكتاتورية قل مثيلها وهو مشبع بكل النظريات السياسية والايدولوجيات القديمة والحديثة لتلبية كافة الرغبات .

وأود افادتكم أني لم اغفل مبدأ المحاصصة في مواصفات هذا الرئيس فقد قمت بالتوزيع العادل لكل اجزائه علي كافة القبائل والمناطق والاعراف وجعلت من اعضائه وحواسه الاساسية كالإذنين والعينين والأنف مثلثا زواياه الشرق والغرب والجنوب ولم اغفل عن توزيع باقي الاعضاء علي المكونات الداخلية لكل هذه الاقاليم لكي تستقر هي ايضا وتشبع رغبتها في التقوقع ونبذ المواطنة .

وبما يتماشى مع أسس ومبادئ الجهوية .

انه الرئيس الديجيتال الذي سيرى كل فرد فيه نفسه وينام قرير العين ويحيا في بيته وفي الشارع في أمن وأمان ويأكل ويشرب وينام أليس هذا كل ما تريدونه .

هذا الرئيس سيلبي لكم ذلك فمن يرى أنه بحاجة إلي ديكتاتورية عليه فقط أن يختار ذلك البرنامج ليحيا معه ويستمع إلي كافة الخطب الهتلرية وما شابهها وفي كل أعياد الوطن واحتفالاته ومن ابتغى الشيوعية فلا بأس من ذلك فالرئيس جاهز ليبدو شيوعيا مائة بالمائة وهو مشحون بكافة الخطب والاحاديث والافكار اللينينيه ومن اراد أي نوع من انواع الديمقراطية فله ذلك ايضا هل هناك حياة مرفهة تلبي رغبات الجميع دون هذا الرئيس من المؤكد لا .

هل قبلتم أنا لا اشك لحظة في قبولكم وفي النهاية نسيت أن أقول لكم أني قمت بتوزيع كافة اعضائه عليكم جميعا عدا المعدة فهي له وحده.

المكب

إن العفونة والروائح الكريهة التي تصدمنا في أنفاسنا حينما نقترب من أحد المكبات التي تُلقي بها القمامة تخفى ورائها الكثير وهي مرآة نتنه تعكس جملة من العادات والثقافات وعلى الرغم من أننا نحاول باستمرار الإسراع بخطانا أو بوسائل مواصلاتنا لكيلا ينالنا منها شيء إلا أن ذلك يعد جزء من اخطائنا الكثيرة فالأجدى أن نتمهل ونأخذ نفساً عميقاً منها لنكتشف الحقيقة التي نحاول التغاضي عنها والإلقاء بها خلف مشاعرنا رغم محاولاتها العديدة للقفز أمامنا وإثارة انتباهنا.

فإن كنا لا نحتمل ذلك ولا نطيقه ونمارس لعبة الهروب من الواقع فإنه على أقل تقدير أن نفكر في إيجاد البديل المناسب لاكتشاف هذا الواقع واقع المكب.

قد نضع الآلاف من الكمامات على أنوفنا أو قد ندبر صفقه مع من شاركونا صناعة هذا المكب أو كانوا سبباً فيه لشراء ملايين الأقنعة المضادة للغازات المهم أن نقتحم ذلك المكب لنقف على كل شيء لنقف على ما صنعت أيدينا وخانت ضمائرنا.

نمسك بهذا المقذوف فإذا به بقايا كتاب متهالك نحاول استنطاق بعض كلماته نفاجأ بأنها خرساء لا تتكلم ماضيها المرضى يوحي بأنها لم تتحدث مع أحد، نتقدم بخطوات حذرة ونحاول وضعها في أماكنها

المناسبة لألى ندوس بها على ارغفة الخبز المتناثرة هنا وهناك نتعمق أكثر نصعد شيئاً فشيئاً إلى أعلى المكب لم نكن ندري أننا سنصادف كل هذه العفونة وكل هذا الدخان الذي اعمى بصائرنا حتى خلنا ان بعض المقذوفات جثتاً آدمية هل يعقل هذا كيف؟.

قد بُعثرت النعم وانعدمت الثقافات ولكن الإنسان إنسان ألا يستحق حفنه من التراب تغطيه نعم إنها جثث انتفخت بها أوداج المكب ويا للغرابه تنبعث منها روائح غير تلك المنبعثه منه تفوح عطراً تنام وهي مبتسمة بعضها ما زال يحمل رايات الوطن نتقدم نحو القمة ونحن الذين ضللنا نهاب تسلق الجبال وصعود القمم ونبحث عن من يحملنا على أكتافه ها نحن اليوم نكابد ونلقي على كواهلنا ما ننؤ به لنصل ولندرك الحقيقة ، ما هي إلا خطوات كل خطوة منها تفصح لنا على الكثير من المدسوسات نتقدم أكثر تبدو لنا القمة كومة هائلة من الدخان الأزرق نتقدم نلتف على أجنابها نستل السيوف نمسك بالنشاب نجهز قواذف المبيدات العطرة وبصرخة من أنين لأحد العذارى وهي تدق الطبول وتبكي ننقض على تلك الكومة الزرقاء ليتهاوى منها كرسي الذل وتنجلي كل تلك السحب الدخانية النتنه ويسوى هذا المكب اللعين بالأرض وتعود جثامين الشهداء إلى ترابها الطاهر وتتفتح الزهور وتَبذر البذور ونهجر حياة القبور.

2016/11/23

تجار

كل التجار يرضون في نهاية الأمر بما كسبو حتى وإن كانت أمالهم وطموحاتهم أكبر مما وصلوا إليه إلا تجار السلطة فهم لا يملكون سلعة في الأساس تراهم يصرفون على تجارتهم التي يرغبون في تمريرها الألاف بل الملايين من الدينارات ويستخدمون كل الوسائل وهم جاهزون للرد على أي مشكك في بضاعتهم التي لا وجود لها إلا في ادمغتهم ويغدونها بألسنتهم وهم لا يفرقون بين ما يعتبر قوتاً للناس أو أحد الكماليات التي من الممكن الاستغناء عنها إنهم تجار يتعاملون مع الناس كتاجر الخضار والفواكه يرشون عليهم المال كما يرش عليها الماء ويلمعها لتزهوا للشاري وأحياناً ينتقي أو ينتقون ما يرونه تالفاً منها حسب المواصفات القياسية لانتماءاتهم للتخلص منها وأيضاً قد يصل بهم الأمر إلى دس بعض التالف في أماكن أو صناديق أخرى حسب الحاجة.

من السهل عليهم عقد تحالفات تخدم مصالحهم ولا يتنيهم شيء من كسب المزيد الذي تتنوع مصادره وقد تمتد أيديهم إلى جيب المواطن البسيط الذي ليس بمقدوره حماية نفسه ولا جيبه، وهو يسلم

أو يستسلم لكل الشروط والطلبات اتباعاً لسياسة كف الضرر التي لا تجدي في أحياناً كثيرة ولا تنجده ويذهب معها الأخضر واليابس.

إن تجار السلطة لا يتورعون عن الغرف من خزينة الدولة بدون حدود ولا يتابعون وسائل الإعلام بكثرة حتى لا ترق قلوبهم على المساكين والجوعى ولا يجدون غضاضة من نعت انفسهم بالوطنية والأمانة.

بل أنهم يتاجرون في القيم والتراث والهوية والثوابت ويودون لو أن الشارع يؤدي بنا فقط إلى كل ما نحتاجه وكل ما هو ضروري لنا ليتمكنوا من السيطرة من خلاله علينا لخلوه من أي علامات أو ارشادات أو لنقل منارات وليغرسوا فينا اننا عبيد لحاجاتنا لنظل طائعين ولتدوم نعمتهم وليدوم ترفهم وميراثهم الذي الفوه ويرددونه على مسامعنا بين الفينة والأخرى لألى ننسى أننا مجرد عبيد رشوا علينا بعض الماء لنتخذ منه قناعاً لحفظ ماء وجوهنا المتبخر.

إنهم يدركون أن عدوهم ثقافتنا وأن أقوى الأسلحة التي من شأنها أن تبقينا عبيداً هي التجهيل لأنه الوسيلة الوحيدة التي من شأنها أن تعمي البصر والبصيرة وتساق الشعوب من خلاله إلى حتفها الذي يأبى أن تدقن لألى يفقد السيد سلطته وسيطرته وليستمر في ممارسة هوايته في الاتجار بالخلق وعقد الصفقات.

إنهم في كل مكان وزمان يتحدثون حديث مزدوج على الرغم من أنهم يستخدمون جملاً واحدة فهم يدعون الناس إلى كل ما فيه خير لهم مع ازدواجية تقول إن لم يعجبكم بإمكانكم الشرب من مياه البحر.

وأنتم أيها الشعب الطيب المستقبل أمامكم وأمام أبنائكم والخير في انتظاركم وكذلك السجون والمعتقلات.

والشعوب المسكينة تأبى أن تصدق أنهم يكذبون عليهم وينساقون ورائهم في دهشة منهم مما يرون ويسمعون وبدون أدنى مقابل حتى أنهم يصدقون ما كذبوا به عليهم وتستمر الحلقة للمزيد من الاطروحات والمقولات والحلول لما هو مستعصي منذ سنيين فوحده زعيم تجار السلطة يملك المدق الذي به الاوتاد تُدَق ويشُد الحبال إلى أن تطال رقاب الرجال وتقطف الأرواح وتبدأ قصة صندوق التفاح الذي يجب أن يظل للجميع متاح تمتد الأيادي له بكل ارتياح لقطف تفاحة منه مضمونة ليس فيها مزاح فقد أعدم الديك وانعدم الصياح وعلت أصوات آخر الليل عويل ونباح وزالت كل تلك التفاهات أو التفاحات التي قد تشوه أصابعنا وتفاجئنا بعفونتها لنأكل ونحن مغمضي العينين كل ما هو مستباح.

تناطح برئ

اجتمع أعيان البلد الصوريون للنظر في بعض المشاكل المتزايدة يوماً بعد يوم خوفاً من بلوغ الأمر أشده بأن يعم الأمن والأمان والراحة والاستقرار لذلك البلد والذي من شأنه أن يعكر عليهم صفو حياتهم التي تعودوا عليها من سرقة ونهب وشتم وقتل وانتهاك أعراض والإبقاء على نسيم القبلي اللافح القادر على سلخ كل الوجوه المستبشرة وقطع الطريق عليها نحو الرخاء.

اجتمعوا اليوم مع بعضهم البعض مصطحبين معهم عدداً وافي من الأشبال والبراعم من الجيل الجديد الذين مازالوا يتدربون على بعض عمليات النشل والنهب ويقومون أحياناً ببعض المشاهد التدريبية على صحة الوجه بالتباهي بما يفعلون والتفاخر به.

اجتمع كل هؤلاء لتدارس بعض المعلومات الخطيرة الواردة إليهم والتي تشير إلى أن معدل الجريمة قد تضائل وأن بعض الناس بدأوا يشعرون بالأمن داخل بيوتهم وأن بعض النساء خرجن من بيوتهن وبلغ بهن الحد إلى الخروج دون أن يصحبهن أي من الرجال لقد بلغت السخرية والاستهتار بالحياة مداها ولابد من الوقوف في وجه هذه الممارسات.

افتتح الاجتماع القائد الأعلى للجريمة تقدم إلى الواجهة ليلقى كلمة الافتتاح نهض وقوفاً كل المتواجدين من مردف مخضرمين واشبال

وبراعم يهتفون له مطالبين تزويدهم بالمزيد من الحقد والنذالة للاستمرار في كفاحهم ضد التقدم المتوحش، وقف القائد أمام مكبر الصوت الذي يبدوا كالخنجر رافعاً يداه تارة وخافضاً اياها تارة أخرى في حركة تدعوا إلى الهدوء فهو لا يحب الكلام في جو من الصخب على الرغم من انتعاشه به وشغفه له.

هذا القائد الفذ المتعدد الرؤوس التي تتحدث وتتحرك بنغم واحد كأنها رأس لرجل واحد يجمع بينها الانتماء للجهل والجريمة تحدث هذا القائد صاحب اعتى واقسى النظريات الداعية إلى الفوضى ومؤلف ادق القواميس اللغوية لترجمة الكلمات والجمل البديئة وردها إلى مصادرها، وقف شامخاً شفتاه تتحركان كأنهما ترتعشان يسرح أحياناً كأنه في شغل شاغل عما حوله وأحياناً أخرى يعود عندما يهدأ الصخب قليلاً.

بدأ في الكلام دون تكلف الكلمات تنساب من فمه انسياباً لقد علمها وعلم لسانه النطق بها تحت وطأة التهديد والاغراء والويل أن هي نست نفسها أو أن لسانه عجز عن النطق بها فهي من القسوة انها تستحي من نفسها ومن قدارتها ولكنه القهر الذي يفرض نفسه على كل شيء حتى على الكلمات.

نفت بكل سمومة أرجع الأمة إلى عشرات السنين تعالَت الصيحات وكلما زادت أخذ قسطاً من الراحة بكل طمأنينة لأنه يعلم

أنها لن تتوقف إلا بإيعاز أخر منه لقد باعوا أنفسهم جميعاً للشيطان ولبطونهم.

عاد إلى حديثه متسائلاً عن هؤلاء الذين يدعون إلى الحياة الكريمة مذكراً أنه وأتباعه لن يتهاونوا في فرض النموذج الأمثل وأنهم سيتغاضون عن عدم مشاركتهم السباب والجريمة وسيلتمسون لهم العذر في ذلك لأنهم مرضى بالجبن، مذكراً بضرورة الاستمرار في صنع التخلف محذراً من أي محاولة للتقدم دافعاً بالكثير من الحجج لإعاقة ذلك والاستمرار في الكفاح ضده.

وما أن صمت قليلاً لتناول رشفة من ماء النار حتى بدأت رؤوسه تتناطح دون أن تسيل منها نقطة دم واحدة عمت الفوضى الجموع وبدأت في التناحر كلن حسب الرأس المنتمية له ولكن والحمد لله لم يدم ذلك طويلاً فهي تعلم أن رؤوسها متساوية لدى فإنها وفرت على نفسها المزيد من الدماء وتوقفت عن التناحر بمجرد عوة الرؤوس إلى وضعها السابق وتوقفها عن التناطح البريء.

ابقت جثت قتلاها تحت اقدامها لكيلا تحرج قادتها وللاستمرار في تتمة باقي برنامج هذا الاجتماع أو المهرجان مهرجان الهرج والمرج والطبول التي تصم الأذان وتشل التفكير وتعمي الأعين وتدفع إلى المزيد من التيه والتفرق وتصحر الوطن.

حل الهدوء قليلاً وعم الصمت عقب هذه الصدمة المتوقعة ولم يكسره سوى قيام رجل ضخم الجثة رث الثياب يرتدي قبعة تبدوا

ثقيلة على رأسه من شدة ما علق بها من أوساخ تلمع كالشمع الأسود فوق رأسه وهو المكنى بأبو جهل وقبل أن يبدأ هتافه التحفيزي ريثما يعود القائد إلى كلامه قاطعته امرأة غلبتها انوثتها على غير طبعها المتعجرف والمكناة بأم المكائد قائلتاً هات لي قبعتك انظفها وأحيكها ثم اعيدها لك، غضب الرجل واعتبر كلامها اهانه له وصاح بأعلى صوته حتى أسمع الجميع قائلاً ألا تذكرون ذلك الرجل النية الذي ظل لسنوات لم يغير ثيابه ولم يغتسل، هل تذكرون لمساته فوق رؤوسكم التي كان لها وقع السحر عليكم ألم تتنافسوا على التقرب منه مالي أراكم اليوم كأنكم قد وعيتم لأسمع منكم ما سمعت.

وبدقة واحدة أشبه بدقة مسمار في خشب رخو صمت الجميع وبدأ القائد في حديثه من جديد داعياً إلى تقسيم الجموع إلى فرق تكلف كل فرقة بتلبية أحد احتياجات التخلف وأن يخضع كل رئيس فرقة إلى اختبارات قبول وكفائه واقتراح مجموعة من الاسماء يتم الاختيار منها لرئاسة هذه الفرق وكان على رأس هذه الأسماء أبو جهل والتافه والمنزلق وخفيف اليد وواسع الجيب والمغيب والمضَلَّلْ والوصولي كما أنه لم ينسى الشامت والمتمرجح والمنتفع والراقص على موسيقى الغبن والارهاب.

كل هؤلاء تم اخضاعهم لامتحانات قبول واختير منهم العدد الكافي لتولي رئاسة الفرق القدرة المتفاوتة في المستوى ونوعية المهام المنوطة بها.

واللافت للنظر أن أبو جهل قد نال الدرجة القصوى في هذه الاختبارات وتولي اعتى الفرق وأشدها بأساً وهي التي تتولى محاسبة مدعي العلم والثقافة وكان قد تعرض لامتحان بسيط وقوي في آن واحد من قبل القائد بنفسه حيث سأله سؤال لا يعلم إجابته بالطبع فهو أبو الجهل فأجاب آآآ فاتحاً فاه على مصرعيه حتى بانت أسنانه الأقرب إلى حلقه فبادره القائد قائلاً وبطريقة ذكية كيف حالك لألى يحرجه أمامه فرد أبو جهل مكرراً آآآ تم نطق (به) بعد أن استوعب السؤال عن حالة ومُنح أعلى درجة من قبل القائد بنفسه، ووزع الباقون الناجحون على كل الفرق وتولت فرقة البراعم قطف الورود البرية التي قد تنبت في الفضاءات والغابات بينما تولّت فرقة الاشبال قطع الاشجار وبعثرة القمامة في الشوارع وإطفاء الإنارة بقطع الأسلاك وقنص مصابيح الشوارع.

وتتدرج مهام الفرق حسب مستواها حيث بدأ بعضها في قطع الطريق وممارسة الحرابة والخطف والاغتصاب والاتجار بالبشر وفرق أخرى معتدلة تنأى بنفسها عن ذلك وتعتبره يتنافى مع الإنسانية وتعمل بما يرضي ضميرها بالإتجار بقوت الناس والوقود وتقاضي الرشاوي وفي مقابل بعض الخدمات ونشر الفساد المقبول لديها.

أما أوطأ الفرق وأرقاها شأناً تعمل بإتقان علمي باهر ومدروس للبحث في افساد النسل والزرع ودعم الفتنة ومواجهة الألفة والتأخي والتسامح واستخدام سلاح التجويع والقتل المنهج الذي تعتبره أشبه

بقتل الرحمة لإرضاء ضميرها الميت حتى أنها لم تغفل عن تأسيس مركزاً لبعثرة السحب لقطع الطريق عن المطر لكي لا يظل شيء أخضر.

ختم القائد كلمته بعد أن وضع لكل شيء حدود جرد فيها الناس من كل شيء ولم يبقى لهم سوى الدعاء في قلوبهم أو الأمل.

هنأ الجميع بهذا اللقاء الناجح بكل المقاييس والمكاييل والأوزان وطمئن نفسه للعودة بمعنويات واطئة جداً للتواصل مع أسياده من قرائن جنية وبشرية فقد اقترب موعد تقديم قربان المتابعة والعبور إلى تلك المغارة في جبل الغولة ليغرس كل رأس من رؤوسه في أحدى حفرها التي يعلمها جيداً ولا يتوه عنها حتى في الظلام الدامس.

وتعود الجموع لتدفن قتلاها الذي قتلوا في الجولة الأخيرة بهذا المهرجان داعيتاً لهم واصفتاً إياهم بأنهم شهداء.

حديث الاطفال

يتحدث الكبار مع الاطفال الصغار وخاصة من هم دون الخامسة بطريقة غريبة وفي الغالب مكرره ومملة كأن يقول الكبير للطفل سلّم ــ أي مد يدك للسلام ــ تم يضيف شن سماك ــ ما هو اسمك ــ يرد الأب أو الأم قُوله ــ قل له ــ اسمك فينطق الطفل باسمه بصوت منخفض مستحي فيرد الكبير منو ــ أي أنه لم يسمع الاسم ــ وقد سمعه تم يضحك فيبادله الطفل الضحك بابتسامةخفيفة سرعان ما تختفي يردد بعدها الكبير مستدركا الأمر ما شاء الله ما شاء الله الله أكبر ليتنفس والداه الصعداء ويطمئنا علي ابنهم من ضربة عين قد لا يسلم منها .

علاقة غريبة وحديث غريب بين شخصيتين مختلفتان تماما ولا يربطها أي شيء وحتى الضحكات التي انتهى بها الحديث لا تدري أيهما يضحك علي الآخر.

قد يبدو كلامي هذا غريبا أيضا ولكنه ليس كذلك وإليكم الدليل الذي يثبت أن الحديث السابق هو حديث غير صائب ولو من وجهة نظر الطفل التي أتوقعها .

فلنأخذ مثالا لطفلين يتحدثا سويا ودون حضور الكبار أو الوالدين وخاصة إذا ما كان الطفلان علي معرفة سابقة ببعضها ونتابع ونسمع ما يتحدثا به دون علمهم طبعا .

ما الذي نتوقعه من حديث، قد يكون حوار حول لعبة يهتمان بها أو اسم لشخصية من الرسوم الكرتونية أو أن الحديث اختفى بينهما تماما واستعاضا عنه بضحكات متناغمة فيما بينهما بمجرد ملامسة أحدهما لشعر الأخر مثلا .

عالم غريب يجب أن لا نتدخل فيه ونستفيد منه للتزود بالمشاعر النبيلة التي تطفو علي حديثهم وضحكاتهم بل وملامح وجوههم وحركة أياديهم وارجلهم وكل شيء فيهم

نعم هذا ما نتوقعه باقة ورد تفيض بالحنان والحب نحن في أمس الحاجة لها لنقي علاقاتنا مع بعضنا البعض ونتخذ من حديثهم علاجا للكثير من امراض العصر ونستمع لهم أكثر من أي شيء أخر يطربنا دون أن نغفل أن الطفلين بطبيعة الحال لا يعلمان شيئا عن بعضهما البعض لا ابن من ولا من يكون بعكس حديث الكبير مع الصغير الذين تحدثا مع بعضها بشيء من الحذر والريبة وبواسطة الوالدين أو أحدهما.

وإذا ما نسجنا علي هذا المنوال فإننا سنكتشف أن حديث العمال بعضهم لبعض هو أقرب لحديث الاطفال من حديث آخر قد يجمع عامل مع رب العمل لما فيه من ريبة ومشاعر دفينة يسيطر عليها

كلاهما بقدر أخلاقهم ولباقتهم وعادة ما تميل فيه الكفة للكبار ، أما أن يستوي الحديثان فذاك أمر محال وإن ارتدى العامل عباءة رب العمل.

وكذا الحال ينطبق علي الوجهاء والعامة وكافة الشرائح الأخرى المتناقضة إن الانسان الذي أثر الاحتفاظ بالحد الأدنى للعلاقات الدبلوماسية مع أخيه الانسان وهو علي استعداد لقطعها تماما في أي لحظة ظل يحتفظ بهذا النمط من العلاقة في تحد سافر للطفولة .

والسؤال هنا عن حديث الوجهاء أو القادة وقس علي ذلك حتى الرؤساء فيما بينهم هل نستطيع تشبيهه بحديث الاطفال .

بالتأكيد كلا وألف كلا لأن هؤلاء يعلمون من يكون هذا أو ذاك وعليه يبنون حديثهم وحتى ضحكاتهم الصفراء أحيانا لما امتلكوه من تعالِ علي العامة .

إن المجتمعات الراقية تحيا علي محيط دائرة نصف قطرها بسيط جداً ومركزها حديث الأطفال ، أما أن تتطابق معه فذاك مستحيل أو لنقل قد يحدث ذلك في جزء منهم يسمونهم أطفال .

وعلي عكس ذلك في المجتمعات المتخلفة يزداد فيها نصف القطر إلي أقصى مداه وتختل الدائرة لتنقلب إلي مجموعة دوائر داخل بعضها البعض أصغرها أقربها إلي حديث الأطفال .

2017/8

حلم مزعج

من على سريري الخشبي الذي لم يعد يفصل بيني وبينه شيء، فقد زالت كل تلك المفارش الناعمة والذي رجعت عليه بعد رحلة دنيوية طويلة قصيرة طفلاً يُغسل ويعتني به ويُلف بكساء أبيض، التمست قدماي المكبلتان الطريق إلى الأرض التي بدت طويلة برجلين حافيتين لميت بلا روح.

خرجت من بيت العزاء سرت والكل ورائي رجال ونساء لا أحد يحملني على الأكتاف لا أريد أن أثقل على أحد أكثر مما أثقلت هالني الموقف الكل مطأطئ الرأس يسير ببطء شديد وما أحوجني أنا الآن إلى هذا البطء لأمتع روحي بنظرات أخيرة إلى بيتي وأهلي وهي لحظات متعة وعذاب وعذابها أكثر من متعتها لأنها لحظات فراق التفتُ ورائي على صوت امرأة قالت احموا العزاء لم أُعلق فلم يعد أمامي مجال لأي شيء فقد ودعت آخر نعمة أنعم الله بها علي نعمة الحياة ولم أعد قادراً على التوبة أو الاستغفار، إن كل هؤلاء الذين يتبعونني الآن ما زالوا يتمتعون بهذه النعمة ليتهم يستمعون ويطبقون ما دامت الفرصة ما زالت أمامهم أكثِروا من التوبة أكثروا من الاستغفار قبل أن يأتي يوم لا تملكون فيه أي قرار وتكشف الأسرار وتساقون إلى يوم حساب لا

أمل فيه إلا رحمة من إله غفار أو عذاب لمن شاء فهو وحده الملك الجبار.

سرت وفي كل مرة التَفِتُ فيها ورائي أمرق شخصاً ما تعاملت معه كان من الأجدى أن أعامله أفضل مما عاملته.

مالني لم أُقبّله في ذلك الأوان كم بودي أن أُلقيه في حضني وأطلب سماحه أشعر أنني أرغب في الصياح بأعلى صوتي لأقول أحبكم جميعاً حتى من ظلمني.

عاودت النظر أمامي لم يتجرأ أحد على السير أمامي سوى حتفي تمهل يا حتفي، لا تنسى أني مكفن معصوب العينين مكتوف اليدين والقدمين بل أنه حتى أنفي وأذناي مغلقتين.

أعلم أن إكرام الميت دفنه ولكنني إنسان خلقني الله وهو أعلم بي ولا أنفي اشتياقي إليه، ولكن لماذا أنت فقط من يسير أمامي هل لأنهم خائفون من الموت ألم يعلموا أنهم من بعدي قادمون أم إنك أمرتهم بذلك لأكون أول الداخلين إلى المقبرة.

حاولت استراق النظر للمرة الأخيرة لأرى أمي وزوجتي وأولادي فما استطعت.

لقد اقتربت من مثواي سؤودع في سكني الجديد إلى حين يوم يبعثون لتلقى كل نفس ما قدمت ويوضع الميزان الميزان الميزان ....!

حواء

كانت تسألني لماذا ومتى وكيف...

أجبتها...

وفي كل مرة تعيد وتعيد وتعيد...

جربت كل أنواع الإجابات ...

تكلمت بكل اللغات ...

حتى تلك التي تدعى لغة الإشارات ...

بل أني أضفت لها بعض الحروف بما أدخلت عليها من إيماءات ...

لم يجدي كل ما فات...

سأنتظر شيئاً ربما لن يأتي، أو أن أتدبر أمر كفتي بعزمي وصبري ولا بأس ببعض الآهات...

أدركت أن هناك خلل لن يداويه إلا خَلع أو خُلع أو بعض الجراحات ...

وما هي سوى بضع لحظات كنت فيها البطل في إحدى البطولات ...

أقفلت فاهي حبست لساني بين قضبان أسناني ...

صاح في وجهي من ظلمي لنفسي وكتماني ...

قلت إهدأ يا عازف ألحاني ...

ألا ترى زهوري نبتت على كبدي ووجداني ...

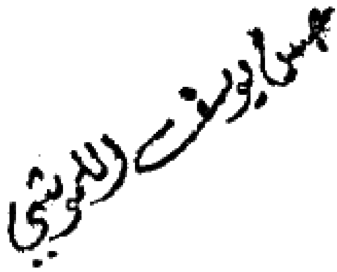
حاول استراق النظر لعل بصيص من نور يبعث فيه الحياة ويجدد الأماني ...

فإذا بستار شفة أطبقت على زمانه وزماني ...

ينام ويصحو كل صباح على تلك القضبان لم يتغير شيء

صاح من جديد وكأني به طارق بن زياد يدخل المعركة وحيداً بعد أن تخلى عن جواده وتخلى عنه جنده ولم يعد لديه ما يحرق، القضبان أمامه والبلعوم من ورائه ينتظر ابتلاعه.

أدرك أن لا مفر إلا مزيداً من الصبر فضرس العقل لديهن يتأخر كثيراً.



خيبة امل

الوقت لم يكن متأخراً ليلا إلا أن الطريق غير المضاء يبدو ضيق وطويل وموحش وعدد السيارات المارة منه قليل .

أمسكت بمقود سيارتي وسرت فيه لأنه الطريق الوحيد الموصل إلي هدفي ، وبين قلبي وعقلي نزاع مؤلم يتبادلان فيه التهم بالإهمال والتقصير وعدم الاكتراث وأخذ الحذر علي الرغم من كل المعلومات التي وصلت اليهما بوجود عصابات تمارس الخطف وسرقة السيارات.

ومع أول منعطف وجدت نفسي خلف سيارة بدون لوحات متوقفة بالطريق وجزء منها يكاد يسدها ولم يتبقى سوى منفذ يسع سيارتي للمرور إلا ان شاباً كان قد غادر السيارة توقف فيه ممسكاً بسلاح صغير في يده .

توقفت فكرت في الرجوع بسرعة وركزت بنظري علي السلاح يبدو كأنه يتحرك في يده ركزت أكثر فإذا به قطة صغيرة سوداء التقطها من الطريق لإنقاذها خوفاً عليها من أن تدوسها أحد السيارات المارة، تنفست الصعداء وانقلبت لدي كل مشاعر الخوف واستُبدلَت بالبهجة والفرح والاطمئنان تقدمت قليلاً للمرور بعد أن افسح لي الطريق وحالما اقتربت منه شكرته فإذا به يصفعني ويقول اقلب وجهك ، نظرت إلي القطة في يده وغادرت.

2017/10

دائن ومدين

كان رجلاً يتمتع بشخصية جذابة مع أنه لا يبتسم كثيراً وقليلاً ما يمد يده للسلام ولكنه في كل مره يجد أياد كثيره امتدت إليه للسلام عليه حتى أنه ألف ذلك وتعود عليه.

يهتم كثيراً بلباسه ولا يخرج للناس إلا بعد أن يثقن هندامه بحذائه اللامع.

خرج ذات مره وما أن تجاوز بيته قليلاً حتى استوقفه رجل من أبناء حيه تساءل ما الذي يريده مني هذا الرجل لا أذكر أني تحدث معه ولو مره واحده.

اقترب الرجل منه حياه وسلم عليه بادله التحية وأهدى له ابتسامة على غير عادته.

لاحظ ان يدي الرجل ترتجفان قليلاً ولسانه ينطق بكلمات خفيفة على الأذنين ومتداخلة ويصعب تمييزها حاول التركيز معه ليدرك كلماته التي كانت كالصيد الذي يصعب اصطياده، وما أن ادركها حتى شعر أنه الرجل المقصود الذي اختاره هذا الرجل الذي يبدو انه لا يصطاد إلا الأسود.

لم يفكر لحظة إنه الأسد إما أن يَنْقضَّ على فريسته التي يقرأها في عينيها وإما أن يغض الطرف عنها.

مد يده إلى دولاب السيارة أخرج ألف دينار مدها إليه قائلاً هل تكفيك.

امتدت يدي الرجل المرتعشه لتقبض عليها وتودعها بأحد جيوب بدلته المهترئه وكأنه كان يخشى من الأسد ان يزئر فينتفض رهبتا منه ويعود بخفي حنين.

عاود الرجل الكلام أدرك أنه يشكره ولم يجهد نفسه في تمييز كلامه كثيراً، ولكنه لم ينصرف بادره قائلاً هذا واجب الجار نحو الجار وأنا أعلم الظروف هذه الأيام وأنا على يقين انك ستردها إلىّ عندما تتحسن الأحوال.

رد عليه ومن أين أتاك اليقين.

- انت جاري منذ زمن ولم اسمع عنك إلا خيراً ومن رواد المسجد.

- نعم منذ سنوات وأنا ارتاد المسجد بالحي وغالباً ما أجلس للتسامر مع بعض الجيران عقب الصلاة ولكنني لم افكر لحظة في الحديث مع أي منهم عما تحدثت معك به.

- عجباً لماذا

- قد اختطُ لنفسي خطه هي أخف وطأ على نفسي

- وما هي هذه الخطة

- أن اتحدث إليك أنت لأنك الأفضل، فإن لبيت طلبي سأكون سعيداً وهذا ما كان يراودني وإن رددتني فإن ذلك سينتهي عند وقته القصير، أما هم فإنهم سيكونون في وجهي وأمامي كل يوم وسيذكرونني بديني الثقيل كل صباح، وإن ردني احداً منهم فسيكون وقع الرد على نفسي ثقيلاً أيضاً أما أنت فلا أراك إلا قليلاً.

- أهذا كل شيء " مبتسماً"

- نعم "بعد أن كاد لسانه يقف عن النون"

- ومع هذه القله فإني لن أحدد لك أجلا لرده ما رأيك

- لا لا أقصد ولكنك تستنطقني يا رجل، أجد فيك أمنا وسكينه لا أجدها في غيرك

- الله اعلم بعباده أنت تمدحني وتشكرني اليوم وغداً سأكون شاكراً لك فضلك بما أسديت لي من حسنات وداعاً.

2017/8

رجال

من الرجال من لا عطر له ومنهم من تحلى بها فهي جميلة إذ تضفى عليهم لمحة جمال وابتسامة في علاقة غريبة بين رائحتها والجسد كما تُفضى عليهم الشهامة والكرم فهي تجود برائحتها على كل من حولهم دونما أي تكلف أو طلب منهم.

فالرجال معادن وكذلك العطور منهم من تحشر أنفك في جسده فلا تشتم منه شيء ابدأ ولربما يختزلها في جسده ويغمض عليها عيناه ويداه ويعقل لسانه بين الإسنان والشفاه وخير لك من قربه ان تنساه وتجفاه.

ومنهم من يلاحقك عطرهم وإن جفوته ويسامحك وإن ظلمته.

تستشعر هؤلاء من بعيد وإذا ما أطل عليك فإنه يغمرك بنبله ويفرض عليك اسلوب تتمنى أن يكون حاضراً بذهنك لتتعامل به معه وعليك انتقاء ألفاظك وترتيبها لألى تُحرج معه ويحتاج إلى قراءة ما في عينيه وفي أي اتجاه هي نظراته ومتى يقفل عيناه أو يفتحها بل وحتى إيماءاته تعني الكثير وهو يثقن استخدامها كلغة بديله عن الكلام.

تراه كالجبل الشامخ الذي يجعلك منبهراً وأنت تنظر إليه تلتف حوله مرات ومرات وفي كل مره تأخذك مشاعرك وافكارك إلى ما هو أبعد وأعمق.

تدعوا من حولك للتنقيب فيه وأنت تعلم أنه مليء بالشهامة والمرؤة والكرم والشجاعة ولكن لا بأس دعهم ينقبون لعلهم يجدون المزيد.

هذا الجبل قد تراه قريب صديق أو زميل أو قد يصادفك ويطل عليك من حيث لا تدري وما عليك إلا اقتناص الفرصة فلربما أضعت كنزاً أن ضيعت رجلا.

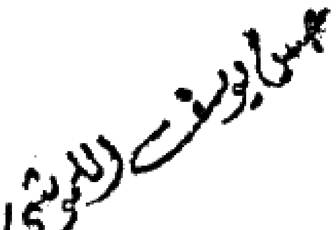
أما إن رأيته أبا فستجده الجبل النهر الذي لا ينبض يغسلك بالماء والثلج والبرد ولا يهنئ إلا بهنائك ولا يهدأ إلا بهدؤك ولا يسعد إلا بسعادتك يأخذك في حضنه وأنت ترتعد خوفاً يغطيك وأنت ترتجف برداً ويدعوك للنوم بين يديه ولتجعل منه وسادتك جبل مكابر في نفسه خالياً من الكبر.

قد ترى على ظاهرة بعض الأشواك نبتت عليه قهراً أو أن أحداً قد زرعها تحيا دونما قطرة ماء كأنه يكابدها ويستشعر جدورها وهي تمتد بداخله محدثاً أياها بأنه جبل أشم ويقول مدى جدورك كما تشائين فأنت لست وحدك زهوري وسنابلي تملأ المكان وتزهوا كما تشاء وهي تتربع قمتي.

اسقيها بقطرات الندى ارعاها بعيوني ولولا خوفي عليها لقدفت بك إلى اقصى بقاع الأرض.

ولكنه قدري سأحيا لأجلها لا لشيء آخر.

جبل ستظل تلتف حوله سنوات طويلة وتتمنى ألا يشيخ لتقطف منه زادك الذي يقويك ويشد من عضدك ولكنها الأيام والأقدار والأعمار وما الدنيا إلا ترحال وأسفار ومن آخر المحطات ليس هناك فرار.



رقم مهمل

لو أن الرقم المهمل ينطق لصرخ لماذا أهملتموني تدّعون أنكم خبراء في علم الاحصاء لكنه التحدي الذي لم يخطر علي بالكم ، كل محاولاتكم لجعلي كَماً لو أني صفرا لن تجدي سأظل رقما يصعب إهماله وإن أسميتموني مهملا ، أعلم أن غروركم هو من سول لكم ذلك ونسيتم صبري وجلدي الذي لم تحسبوا له حساباً يا أصحاب الاقلام الرفيعة سأرسم نفسي بقطع الفحم علي الجدران سأتعلق بأوراق الشجر سأفترش الشواطئ ستجدونني في كل مكان ليتكم اكتفيتم بمقارعتي رجلا لرجل قلوبكم وعقولكم المليء بالاحتمالات والتخمين والافتراض تأبى لكم ذلك .

أدخلتم معي العديد ممن لا ذنب لهم سوى أنهم قلة .

يقول قائل أنهم عشرون ويقول آخر أنهم تسعة عشر فقط يرد الأول بل هم عشرون يتسأل الثاني هل حسبت ذاك المعتوه معهم يرد الأول نعم يجيبه الثاني (متعدش بيه) أنه رقم مهمل وإن شفى.

لا يا أصحاب الجلالة خذلتكم خبرتكم و احتمالاتكم وتخميناتكم أنتم في مستشفى المجانين .

2017/7

زمن محير

زمن الشراء قد ولى وفات نحن في زمن أنصاف الحلول ما عهدت تجارة إلا ببيع وشراء ولكننا اليوم فقط نبيع بعد أن ولى الربيع وبدأت أوراق الخريف في التساقط لتتعرى الاغصان وتتجرد من كل شيء حتى أنها بدأت تأكل قشرتها التي بها تحيا ما عدنا نرى سوى غابة من أغصان جافة وميته تحولت فيها القطط إلى أسود وأحكمت القيود عبثت بإرث الجدود أوجدت مصابا فاق الحدود لا تقل لي أنك للصبر ستعود قد جربناك أكثر من مرة صبرك طويل ولا أدري لما الانتظار حتى سماع العويل تسيد الغلمان تعثر الشيب دبلت الأنفس والأبدان سحب الحيرة تتجمع فوق رؤوسنا نتلمسها بأيدينا نتساءل ما الذي يجري مالي أراك تنتحرين أفيقي بحرك طويل أقذفي ما شئت من الماء عليك لن ينفعك لطم الخدود غداً ستحُل السحب ويتساقط المطر استعدي ايتها البراعم ستعود لك أوراقك التي تستظلين بها حينما تقسوا عليك الشمس.

قد آن الاوان وحل الزمان وما عاد للصبر مكان.

2016/10

سينما

اقتطع تذكرة من شباك التذاكر وتوجه إلى باب الصالة أزاح الستار قليلاً ودخل، كانت الصالة مظلمة ولا ضوء بها سوى نقاط ضوء حمراء تبدو من بعيد، حاول التماس الطريق بين صفوف الكراسي ليبحث له عن كرسي يجلس فيه، تقدم ببطء شديد تم أسرع قليلاً لألى تفوته بعض المشاهد، مد يده يتحسس بها أحد الكراسي ليجلس فإذا بها تقع في جيب أحد الرجال الجالس على ذلك الكرسي، أمسك بيده النحيلة وقال له أمسكت بك أيها السارق الصغير، رد مضطرباً

لا لا ياعمي أنا لست بسارق لقد دخلت لتوي إلى السينما والظلمة شديدة، كنت ابحث عن كرسي.

لقد أمسكت بيدك في جيبي.

سامحني يا عمي هذه أول مرة أدخل فيها إلى السينما.

لقد افسدت عليّ الفيلم لكنني لن اتركك ابقى مكانك.

وقف بمكانه بجانب الرجل وهو يرتعد، نظر إلى شاشة السينما التي كان يتلهف لرؤيتها وجد أنها كبيرة جداً، انها تضاهي عدد كبير من شاشات التلفزيون، وكانت أول لقطة يراها في حياته لبطل الفيلم وهو يحطم الكراسي في المقهى البسيط على رؤوس خصومه ورواده أيضاً حتى أنه لم يُبقى إلا على كرسي واحد جلس عليه وسخر كل من بالمقهى لخدمته الذين اطاعوه بعد ان زينوا خضوعهم بالولاء له.

تحمس الجمهور ودخل في وصلة من التصفيق للبطل وتعالت بعض الصيحات التي أبت ان تكون إلا كالموجه التي تعشق الانكسار على صخرتها.

ولم يستثنى ذلك الرجل نفسه من هذا الضجيج وقام يصفق ويصيح وما هي إلا برهة حتى أفلت ذلك الفتى في الظلام واتجه إلى ذلك الضوء الاحمر ازاح الستار قليلاً عن الباب ودخل فإذا به أمام صف طويل من الأبواب بعضها مقفل والبعض مفتوح دخل احداها وأوصد الباب خلفه ووجد نفسه حبيساً مع مرحاض وحنفيه وروائح كريهة وعلى الرغم من هذا فإنه شعر بالارتياح وأخذ نفساً قطعة بسرعة قبل أن يغمى عليه.

لم يستطيع الجلوس على المرحاض، دخل باحثاً عن كرسي فإذا به أمام مرحاض يرفض أيضاً قبوله، ظل واقفاً يفكر فيما يمكن عمله.

فكر قليلاً وركز السمع فإذا بعدد الداخلين يزداد والابواب تفتح وتوصد العديد من المرات حتى امتلأت أحس بذلك حينما بدأ البعض في التصفيق المتقطع أمام الأبواب إشارتاً لمن بالداخل إلى ضرورة الإسراع بالخروج ثم صاح أحدهم هيا يا جماعة وقت الإستراحة يكاد ينفذ ظل بمكانه دون حراك في انتظار لقطة مثيرة للجمهور في النصف الثاني من الفيلم لينجو بجلده ولم يشعر أحد ببقائه لتعدد المراحيض وتعدد الداخلين والخارجين.

وبعد انتظار ممل حل الهدوء مما يعني ان النصف الثاني من الفيلم قد بدء توجه بسمعة إلى الباب في انتظام التصفيق والصياح ويدعوا

بالنصر للبطل للقضاء على ما تبقى له من أعداء ذلك القضاء الذي سيكون كالطعم للجمهور للتصفيق والإثارة وبالتالي للنجاة من العقاب الظالم والهروب ولم تتأخر الاستجابة كثيراً جرى كالسهم وشعر أن الجمهور يصفق ويهلل له لنجاحه في خطته وخروجه سالماً من الصالة.

وجد نفسه في الطريق، ابدل انفاسه بهواء نقي، توجه بنظره إلى السماء لاحظ أن الشمس تدنو من الغروب وهو موعد اطعام البقرة التي ستفضحه لدى والده بصياحها إذا لم يقدم لها الطعام.

هرول مسرعا إلى المحطة صعد الحافلة وحال مغادرتها المحطة تمنى على السائق ألا يتوقف إلا بالمحطة النهائية التي يقيم بقربها وكلما توقفت عند أحد المحطات أحصى الركاب وتبع بنظره تحركاتهم حتى جلوسهم على الكراسي وكم كان منزعجاً حينما صعدت الحافلة امرأة عجوز طاعنه في السن تتحرك ببطء شديد مما أوقف الحافلة زمناً طويلاً، قام بإحصاء عدد المحطات فوجد أنه لم يتبقى سوى اثنان أحس بالفرج قليلاً وأن الفيلم اقترب من نهايته، وصل واتجه مسرعاً إلى بقرته وقد أوشكت الشمس على الغروب وتلونت بالشفق الأحمر في أدنى الأرض، صاحت البقرة فوجدته أمامها يقدم لها الطعام ومن فرط فرحته كاد يشاركها أياه.

قدف بنفسه على ظهره وصاح أَلا يوجد جمهور يصفق.

2017/9

طرابلس المدينة القديمة

لا أدري إن كان ذلك عويل أم أنين رغم الفارق الكبير بينهما ولا أدري إن كان من حولي يشدهم نفس الصوت أم لا نظرت في الهواء وكأني أبحث عن مصدر الصوت اقتربت قليلا من حزمة لشعاع الشمس علي احد الجذران شدتني حبات الرمل التي تتساقط منه والتي تبدوا كالذرات تسبح في ذلك الشعاع تم تتهاوى أمعنت فيها النظر حتى اسفله ادركت انها تتجمع ذرة ذرة ومع كل يوم ومع كل صباح تزداد وتزداد دونما منقذ رفعت رأسي الي أعلى نظرت الي اقصى الزقاق عربة صغيرة يدفعها غريب يلملم حبات الرمل تلك ويقدف بها في حوض الزبالة صرخت يا إلاهي من هذا الذي يقتات علي تاريخنا ويرميه في الزبالة هل هذه هي ما يدعونها بمزبلة التاريخ لا بد من إيقافه وانقاذ ما يمكن انقاذه لا بد من طمأنة تلك الذرات لتكف عن العويل والانين والعودة بها إلي مهدها لتستعيد رحلتها التي بدأتها منذ مئات السنين ولتبقى جزيئات متراصة تتحدى الزمن.

مدينتي من اين أتى لك بالدواء

أجيال انت لهم أم وبلسم وشفاء

سأصلي بكل مساجدك سأدعو تحت كل قبابك سأقاوم بالإيمان والدعاء .

يا رمز وطني لن اسمح ببيعك سيخسرون التحدي وإن ركبوا رؤوسهم وستبقين لنا عزا وإباء

من اين اتي لك بالدواء

زقاق ضيق كشريان الي القلب مآله وأبواب موصده تقف شموخاً و كبرياء

صُدت فَصَدت معها ابواب التاريخ أبت أن تبوح بسرها إلا لأحفاد من سكنوها همست لهم بحكايا الجد في السراء والضراء

لم يعد شيئا كما كان كل شيء تغير إلا تلك الامواج تناطحها صباحا ومساء

بين مد وجزر وبصوت أقرب إلى الأنين منه إلى العويل .

2016/7

الأشرار

تراجعْ لن نسمح لك بالمرور، تراجع لن نسمح لك بالعبور، نحن نلتهب حقداً وناراً، نأكل كل شيء، عالمنا الأطفال فيه يتناحرون وزرعنا لا يدبل ولا يستجدي ماءً، وجوهنا مليئة بالأشواك لا بل حتى الجذور، تراجع لن نسمح لك بالمرور، من أنت من تكون؟! ماؤنا أحمر وطعامنا أيضاً جمراً أحمر يسري في عروقنا تزداد به نبضات قلوبنا، وتدق الطبول، لا للحب لا للسلام لا للأمان نحن صحراء الصحاري وغدر البحار نحن أم النار والعار نحن الأشرار.

أقلامنا خناجر، لا شيء يثنينا عن كتم الأنفاس أو ذب الأعناق العقل عقال نلفه على الرقاب لنعلقها متى نشاء، وفِّر على نفسك أنفاسك، تراجع لن نسمح لم بالمرور، من أنت من تكون؟!

الرأي والحوار، الدين والإيمان، الأمن والأمان، لا تجرؤ حتى على النطق بها أيها الجبان، أطفئ الشموع، مياهك لن تطفئ نيراننا، اغرس قناديلك في البحار، ليس لديك إلا الأمل، ولك أن تأمل كما تشاء.

هل تأمل أن تغلي البحار ويحدث الطوفان ليجتاح الشواطئ ويغسلها وينقيها من الأشرار، ويَزرع الورود، ويبني كل ما فيه للشر حدود، لك ذلك، فنحن نملك كل شيء إلا أن نجعلك لا تأمل.

الشبّاك

يتزاحمون على الشبّاك يتشاجرون، ولا نعلم أيهما أفضل الزحام أم الطابور، فلكلٍ عيوبه؛ الزحام يخضع لشريعة القوة، أمام الطابور فإنه يخضع لشريعة القهر، وهو أمر مؤلم ومفزع فبكل بساطة يتقدم أحدهم إلى أول الطابور دونما أن يحرك أيٍّ ممن فيه ساكناً؛ إما لأن المتقدم يرتدي نفس زي من بداخل الشبّاك، أو خوفاً من العقوبة بعدم قبول المعاملة إن كان غير ذلك، ورغم هذا أو ذاك فإن الجميع يحاولون نسيان أو تناسي الانحناء أمام الشبّاك لأنه في الغالب يُبنى على ارتفاع أقل من قامة الإنسان كمواصفة خاصة بالشعوب المقهورة، وبما يناسب جلسة المسؤول، ولكي يحتسي قهوته بكل هدوء، أما حقوقك البسيطة الأخرى فعليك التغاضي عنها بكل روح رياضية كاتقاء الشمس والحر صيفاً أو البرد والمطر شتاءً، فالشُبّاك يطلُّ على الفضاء بل إن أجهزة التكييف تنفث حرارتها وصوتها على من هم خارج الشُبّاك، صور وأفكار تراءت لي وأنا أنظر إلى هذا المشهدوأشخِّص الحال، وأحدق أحياناً في وجوه الناس من حولي وما عساي أن أفعل للوصول إلى الشبّاك بكرامة، ولكن قبل هذا؛ ماذا لو فعلت شيئاً يواسي هؤلاء الناس ويخفف عنهم....؟!

نعم وجدتها سأغادر المكان وأعود بكمية من المظلات، فالجو هذه الأيام متقلب تارةً حرٌ وشمس وأخرى بردُوأمطار، وسأقوم بتأجيرها

لهم فهي تصلح للغرضين كما أنها ستعمل طوال السنة وهذا سيمكنني من العمل دون انقطاع.

ياله من يوم رائع، العمل الذي جئت من أجله تحصلت عليه ولكن بإرادتي، ولن أحتاج إلى الشباك، وسأتقي شر الإهانة ولكن ماذا عن الناس والطابور والزحام والانحناء، فهذا الشبّاك اللعين إصلاحه ليس بالشيء الهين، إصلاحه يعني قهر التخلف وصنع التقدم، وفيه احترام لآدمية الإنسان وإشعاره بكرامته؛ لذا فإنه لابد من البدء في شق طريق الكرامة إليه، ناديتُ الجموع هيا نصنع طريق الكرامة، هيا هيا، استمعوا إليَ في ذهول، بعضهم ودّ لو قفز من مكانه ليكتم فمي، كنت أتصور أن الجميع سيكونون معي، وسيلبون ندائي، ولكن ويا للأسف رهبة القهر جعلت البعض منهم يصمُّ أذنيه ولا يأبه لما أقول.

حسناً، سأبدأ مع من استجاب لي، وسنبدأ العمل في شق طريق إلى الشبّاك، فمِن على بُعد عشرات الامتار سنشق طريقاً يبدأ من سطح الأرض عند النقطة صفر وينتهي عند الشبّاك بعمق قامة إنسان آدمي وبعرض لا يسع إلا شخصاً واحداً، نعلم أننا سنواجه بعض الصخور، وقد جهزنا لها الفؤوس، ونعلم أننا سنصل إلى الشبّاك بكرامة عبر الحفْر في الأرض، ونعلم أيضاً أننا على حق كلما اقتربنا إلى الأرض، أما من بداخل الشُبّاك فإنه حتماً سيتغير عندما نتغير.

روضــــة أطفــال

كان يمشي متبختراً يميل يميناً وشمالاً في تناسق جميل بين أرجله الأربعة، لونه الترابي الذي يميل إلى البني تارةً وتارةً أخرى إلى الذهبي جعله محل أعجاب الناظرين له دون أي إكثرات منه بهم، يمشي رافعاً رأسه وعيناه كالسهم تسبقه، وما أن مر من أمام باب مشرع لروضة أطفال حتى فاجأه صراخ عالي لهم وبدلاً من الهروب للخارج دخل الباب وكأن الصدمة فعلت فعلها وجعلته يتصرف عكس المعتاد، دخل مقتحماً الروضة وأدخل نفسه في سباق مع الصراخ وكلما أزداد علواً زاد من سرعته ومناورته حول الأطفال والمعلمات، بعضاً منهم كان ينظر ويضحك بحذر وأغلبهم يصرخون صراخ البكاء، قلة من المعلمات تشجعن وتقدمن نحوه لضربه بلا شيء لأنهن لا يملكن شيء، إلا أن واحدة منهن أخذت تلقي بحقائب بعض الأطفال عليه مما زاد الأمر تعقيداً وأضحى صراخ الأطفال مضاعفاً خوفاً على تلك الحقائب التي ألفها الطفل على ظهره وكأنها صارت جزءاً منه من ثقلها غير المعتاد حتى أضحى يشعر بها وكأنها باقية على ظهره حتى وأن كانت غير ذلك.

ومعلمات أخريات بقين في صمت وثبات لا يحركن ساكناً سوى أعينهن التي ظلت تتبع ذلك المقتحم لعله يقترب منهن ليكن على

استعداد للقفز إلى أي مكان أخر، كانت لحظات مرعبة للجميع وبدى المقتحم أكثرهم رعباً حتى ظل طريقه ولم يعد يعلم أي طريق يسلك أو إلى أي اتجاه يسير إلى أن تمت محاصرته بأقدام مرتعشة ولم يتبقى له سوى منفذ واحد هو ذاته الذي دخل منه، خرج يعدو للفوز بالنجاة قاطعاً الطريق لتتلقفه أحدى السيارات وتعتصره تحت أحد عجلاتها وليفجر صيحة بلغة أخرى غير لغة البشر ولتغطي على كل ما علا من صياح وتستبدله بصمت غريب وحزين ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن سيارة ثانية وثالثة سلكت ذات المسلك لتحوله إلى أشلاء كل ذلك تم في لحظات وبعد برهة الصمت تلك انطلقت أصوات البكاء من جديد ولكنها من نوع أخر وبدأت مراسم المواساة بين الأطفال والمعلمات حتى أن بعض البكاء تحول إلى نحيب، غريبة هي المشاعر وغريب تبدلها وكأني بهم يبكون ويتساءلون عما يريدون، لا شك أن الفزع أو الجزع والخوف والصدمة أعداء للإنسان وهي أدوات تتلاعب به كيفما تشاء، تغير كل شيء وكأن كوخاً تساقطت أعمدته بفعل ريح عاصفة، ولا بد من لملمته وأعادتها إلى ما كانت عليه، هدوء تلته بعض العبارات المطمئنة وابتسامات خفيفة مليئة بالعتاب تستدعي الصبر وتحث على العودة للبدء في البرنامج اليومي لأطفال الروضة، وفي هذه اللحظات الحرجة كان على الأخصائية الاجتماعية والنفسية التدخل لتغيير ذلك البرنامج وأوصت ببقاء الأطفال

بالساحة في الهواء الطلق للعب والرسم إلا أن جل الأطفال اتجهوا إلى قضاء وقتهم في الرسم ومع متابعة معلماتهم لتلك الرسومات التي يخطونها وجدوا أن كلها تصب في اتجاه واحد لم يخرج عما حدث في ذلك اليوم فالبعض منهم رسم رأساً لقط والأخر رسم قطاً بذيل طويل جزء منه تحت عجلة سيارة ربما ليخفف عن نفسه وقع ما رآه تدريجياً وآخرون شدتهم ألوانه التي انغمسوا بخطها على الورق دون تحديد معالم واضحة له، كلاً عبر عن إشارات يجيش بها خاطره، تعددت الرسومات والموضوع واحد إلا أن أحد الأطفال لم يرسم شيء وكتب على طول ورقة الرسم تلك روضة القط الذهبي والتي زينت وعلقت على بوابة الروضة وأضحى ذلك الاسم مفخرة لكل الأطفال ويتباهون بأنهم يدرسون في روضة القط الذهبي.

انتهت

عهد

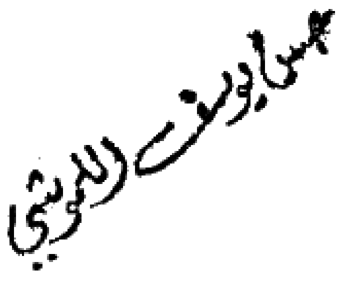
لن يفرق بيننا إلا الموت عباره يرددها الأحبة على أنماطهم وأنواعهم يعبِرون بها عن شدة تعلقهم ببعضهم البعض عاطفياً ونفسياً أو اجتماعياً أو حتى مصلحياً.

وإنه ليخيل إليّ أن هذا الارتباط الوثيق قد يمتد لينسج على منواله خيوطاً حريرية لامعة جميلة ومرهفة لتدخل ضمن هذا الارتباط وتصبح جزء منه وتتسع قاعدته وتزداد مساحتها وبالتالي تضخُم المسئولية عنه وعن استمراره وإن حدث أي طارئ مفاجئ أو غير ذلك يستوجب الفراق سيجعل من كل الحلول الأخرى صعبة التطبيق لأنها ستضر بالنسيج العام لهذا الارتباط ضرراً شديداً وتكون الخسائر فادحة ومؤلمة للجميع بما فيها تلك الأنسجة الناعمة النائمة في اعشاشها دون إن تفكر يوماً أن ريحا قد يعصِف بها ويجْبرها على التحليق قبل أن تنبت لها ريشة واحده.

ووسط هذا الكم الهائل من القوانين الغير مدونه والملزمة التي سنتها الحالة الاجتماعية تتبعثر الأوراق ولن تكون لك القدرة على لملمتها وستجد نفسك مكرها على الخضوع لها وستدنو بخطى فكرك إلى أخف الضرر.

وعندها أجدني أكثر ميلاً إلى أن ذلك العهد أو الوعد سيصبح كالناقوس الذي يطارد كليهما أو أحدهما للخروج من المأزق، فالموت حق وسيقبله الجميع والقسوة ليست فيه بل في انتظاره ومتى حان ستنام وهم راضون عنك وعن خضوعك وبعد ثلاثة ليالي سينتهي كل شيء وسيدعون لك الله أن يجعل قبرك روضة من رياض الجنة ويُبدل حالك إلى حال أفضل مما كان عليه في الدنيا وقد صدقوا.

2017/8



فأس صغيرة

سأسجل في قائمة العار بيدي وبقلمي وبإرادتي لم يأمرني أحد بذلك أصحوا مبكراً قبل صلاة الفجر مسرعاً بخطواتي إلى سيارتي التي استعجلها هي أيضاً لتدفأ وأنطلق بها لألحق باكراً للتسجيل حتى أن رقمي بالقائمة لم أعد أُعره كثيراً من الاهتمام فأنا في احياناً كثيرة عندما يكون رقمي من الأوائل تمزق تلك القائمة وتصبح كما مهملا حال صياح أحد موظفي المصرف قائلاً لا توجد سيولة ما الذي فعلوه لنا لكي ننعم بهذا النشاط وهذا الحرص على النهوض مبكراً بينما في أعمالنا ووظائفنا نتأخر كثيراً ولا نبالي بالتوقيت وقد ننام حتى منتصف النهار لنذهب إليها بخطى ثابتة ومتمخطره في آن واحد وكأننا نمن على وظائفنا بالمجيء إليها دون أي اكتراث بالعطاء أو الوقت هل هو مرض اللاوطنية وعدم المبالاة أم هو نزعة اجرامية ضد الوطن من أوصلنا إلى هذا نتصرف بأسلوبين متناقضين في ذات الوطن هل هي سنارة الحاجة غُرست بأنوفنا لتقودنا إلى المصارف فجراً فإن كان كذلك لماذا لا تُغرس نفس السنارة لنقاد بها إلى أعمالنا مبكراً ونعطيها حقها أم أن ذلك غير ممكن، بَلا ممكن ولكن يبدوا أن حب الانتقام من الوطن وادعاء حبه هي اقنعة أَلبَسها إيانا اعداءه

واصبحنا نتصرف وكأنها هي المعبر عما بداخلنا سواء علمنا أن لم نعلم لابد من الاستفاقة والعودة إلى الذات لنحيي الموتى بداخلنا لا مناص من العطاء والاستقامة والاحترام فالدول والشعوب اضحت تعمل كمنظومة واحدة الكل يشارك فيها ويخلص لها لترقى ويعم الخير الجميع والسؤال هنا ما هي أولويات العطاء، إن أي هدف ترغب في الوصول إليه لابد من التفكير أولاً في الطريق الموصل إليه والبدء في تنفيذه ولربما تحتاج إلى إزالة الكثير من الأشواك وهنا يبرز سؤال آخر ماذا لو أنك تمتلك فقط فأساً صغيرة لا تستطيع أن تشق بها متراً واحداً ما بالك بمئات الكيلومترات.

أن هذه الفأس الصغيرة هي تلك الفئة القليلة التي تملك من الثقافة ما يوصلنا إلى تحقيق اهدافنا في بناء مجتمع ينعم بالأمن والأمان والسلام وهي التي يقع على عاتقها المسؤولية الكبرى لتحقيق ذلك حتى لو اضطرت إلى الاستعانة بأسنانها الراسخة في افكارها والتي يعجز عن خلعها أمهر الاطباء لأنها أسنان لا تعض بل انها قادرة على مضغ الصخور الصماء لتحيلها إلى تربة خصبة خضراء ليعم الحب والسلام والرخاء.

كأنها حلم

الناس تحيا في خيال يخيل لهم أنه واقع، لا أحد منهم امتلك لحظة منه، أو أستطاع الاحتفاظ بها وتخزينها للعودة لها متى شاء، واقع يمضى ويطوى زمناً لن يعود ويكتفي بوضع بصمته على كل شيء ليذكرنا بأنه كان هنا.

إن أحلامنا التي نعيشها في المنام ونتعامل فيها مع بشر أو حيوان أو خيال هي أكثر واقعية ولا نستطيع انكارها ولا الامساك بها كي لا تثقل علينا، ولا تكلفنا شيء ابداً، وزمنا لا يتعدى برهة منه.

بينما نحن في خيال الواقع قد نضحي بكل شيء ونشقى ونتعذب ونتحسر حتى على الزمن الجميل الذي عشناه لأنه مضى كالحلم.

لا أدري ما الذي يقنع الإنسان ليعيش الواقع فعلاً دون أي خلط بينه وبين الخيال أن يعيش الواقع يعني أن يتلمسه كما يتلمس الأعمى شيء ما ليتعرف عليه ويدرك تفاصيله التي تكشف له عن هوية ذلك الشيء من خلال تحسس زواياه وثناياه وثقله وملمسه بل وحتى صوته وخفة دمه ليتعامل معه بواقعية تفضي لمعرفة تامة بمكنوناته التي ما أن يدركها ذلك الأعمى حتى يبتسم وكأن النظر قد عاد إليه.

ويرى العالم بأعين الناظرين التي تحاول إدراك شيء مما أدرك دون جدوى، وتقف مشدوهة اما واقعها الخيالي تتحسر عليه وهو يعدو كالبرق الخاطف.

2017

ليبيا

ليبيا كانت هنا ترقص بين أشجار الورود والياسمين، ترتدي ملابسها العرائسية، وفي كل مرة تتباها بها أمامي وتخرج عليا بين حين وحين بطرحة جديدة وبلون جديد وتسألني ما رأيك أهذه أجمل أم سابقاتها، كانت عيناي تتبعانها في كل خطوة، وكل حركة، وكل إيمائه، كانت تهزني وتهزمني في آن، وأسعد بذلك لأنها انتصرت عليّ، أبكي هزيمتي بدموع الفرح.

أفقت اليوم باكراً، لم أجدها، ها هنا كانت معي تلعب في يقظتها، وتغرق في أحلامها السعيدة عند منامها، مخدعها وسادتها في صمت وذهول، لم يفصحا عن شيء قد تكون أباحث به، لم تترك أية علامة أو وصية.

أين أنت يا ليبيا.

سأعدو في كل الطرقات لن أترك أي زقاق سأحيل كل حواسي إلى أنفاس لعلها تلتقط انفاسك، وكل أعضائي إلى أقدام تجري وتلهت في كل اتجاه وبغير دليل.

العيش من بعدك يا أنا مستحيل.

أين أنت يا ليبيا,

هل من مجيب دلوني.

لا تقولوا إنها ها هنا في قلوبنا.

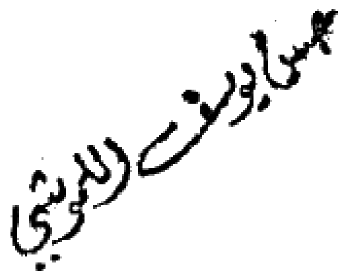
سأجيبكم وأقول انها ها هنا أيضاً في قلبي.

أنا لست بخارق للقلوب ولا ناكراً للمشاعر.

أنا محب وعاشق.

أريدها بين يديّ أزهو بها وتزهو بي، تحضن أمي وأولادي، أحيا عليها كما أبائي وأجدادي.

أين أنت يا ليبيا.



مسئول

احدثك تتردد في النظر إليّ تم ترد باقتضاب دون أن تتوقف أخجل وأتراجع وتستمر أنت في المسير إلى مخدعك المحروس بأعتى القوى أنا المواطن المسكين لا أملك القوة لإيقافك ولا لاقتحام قلعتك للجلوس معك أو حتى للوقوف بجانب المكتب المفروش بشتى أنواع الكراسي الجميلة دون أن اطمع في الإذن بالجلوس عليها واكتفائي بنظرة منك لا يهمني نوعها فقد تعودت عليها واتحدث إليك وفي قلبي رهبتا من المزيد من العنف النفسي الذي سيطالني إذا ما أدرت كُرسيك وأعطيتني ظهرك وأنا اتحدث أو أن تقاطعني بالرد على رنات هاتفك التي لا تنتهي.

أنت يا خادمي لماذا قلبت الموازين وتعاملت معي كأني خادماً لديك تنهرني تقفل في وجهي الباب تجلسني في الانتظار لساعات أدق الباب بتردد، اختزل كلماتي التي اعدتها سلفاً لأعزى بها نفسي ,فما أن تسمح لي بمقابلتك حتى اتراجع عنها وتسقط فجأة وتعلوا وجهي ابتسامة عريضة محاولاً بها إضفاء شيءً من البراءة على ملامح وجهك المتجهم خادمي العزيز هل لديك شأن آخر يلهيك عن خدمتي.

قل لي ذكرني لكي ألتمس لك العذر هل انقصت في حقك شيء لا أظن ذلك حتى إني جعلت من علاقتي معك معكوسة وأغرقتك بكل

المحاسن والمزايا لخدمتي يبدو أن هناك سوء فهم قد حصل بيننا فإن كان كذلك عذراً أيها الخادم لغبائك الذي أوحى لك بكل هذه المزايا التي زينتها بغرورك ورصعتها بأحجار الرشاوى ولبست لها ربطة عنق بكل ألوان الطيف لتبدو في نظر الآخرين كالمهرج دون أن تدري وليختلط عليك أمر الضحكات التي تتلقاها بين أن تكون ضحكات أعجاب أم استهزاء عد إلى صوابك

لن يمهلك سيدك طويلاً

سيضع في القريب حداً لتطاولك عليه

سيعطيك حق قدرك

سيخيط لك توب العار ويلبسك اياه

سيجردك من كل ما يغطيك

وتمتد الأيادي للأنوف لتغطيها اتقاء

لروائح الخيانة المنبعثة منك.

مطبات

قدماي تتسابقان تتعاركان تأبى كلن منهما السير في نفس الطريق وهما لا ينفصلان، ويظل وثاقي مشدوداً بينهما لا حيلة لي إلا القبول بواقع فيه يتنافسان.

لن أحاول تغيير أي شيء فما عاد النصح يجدي ولا الإصرار.

لا تقل لي أعِد الكره فقد مللت التكرار لن أُجْهِد نفسي في اتخاذ أي قرار.

وأسأل نفسي هل هو الفرار.

سأمشي وسط الطريق لن ألتفت يميناً ولا شمالاً سأقذف بكل الترهات.

أنهم مجرد بشر أو أنهم يلبسون قناعاً بشرية، صخور متحجرة تعلوها لحوم ودماء ولها أعين أيضاً.

كأن طلعتها من بيت جارتها مر السحاب لا ريت ولا عجل، كلام عتيق لا يعكس الحب العذري في ذلك الحين فقط بل يعكس أيضاً حالة مجتمع ذو ثقافة إنسانية دفناها منذ زمن طويل.

كثيرة هي المطبات كان من الأجدى إمدادها على الأرصفة أيضاً لتكتمل الصورة وتحلوا الحياة وتُفتح الاعتمادات لدعمنا بدعائم مدعومة نشد بها ظهورنا لمواجهة تلك المطبات.

طال زمن الطاغوت طال زمن الجهل، الغريب أن عقرب الثواني تدور وتعمل دون أي تقدم لعقرب الدقائق والساعات زمن لا يدعوا إلى الشك والريبة فقط بل إلى الذهول.

سأواصل التحدي والمشي في منتصف الطريق وحينما ينال منى الاعياء ربما سأنام فيها كالمطبات وسأمد جسدي ليبدوا كعرض الطريق لألى أُحرَم من قدم تدوسني أو عجله تمر عليّ لتذكرني بالحياة

أرغب في العودة للوطن وسماع حكايات عنه كنا بها نفتخر، سيوف جلتها أحجاره وسهام صُنعت منها حتى أوانينا كانت من تلك الأحجار لن ننسى سنذكر حتى عهودنا الغابرة.

2017/7

موسم الحصاد

خرجت الأم وولديها للحصاد في يوم حار ومشمس كان أحد ولديها وهو الأصغر يبدوا كسولاً قليلاً.

كل يوم وفي الصباح الباكر يقومون بنصب العشة عند أحد حواشي الزرع ببعض سعف النخيل، يستظلون تحتها عند الظهيرة ولتناول شيء من طعامهم، ثم يبدئون في الحصادِ يداً بيد، تقوم الأم بالحصاد معهم وأحياناً أخرى تتولى جمع ما يحصدون لوضعه على المنذر، وهم على هذا الحال منذ أيام.

وذات يوم وبينما هم كذلك وعند فترة القيلولة التي يقضونها داخل العشة أخذت أحد أولادها غفوة وهو الأصغر الكسول ونام، وما أن انكسرت الشمس قليلاً حتى تأهب الأبن الأكبر وأمه للخروج من جديد للحصاد خرجا وكان لزاما عليهما نقل العشة إلى مكان آخر.

تقدم الأبن الأكبر وأستل أعواد الجريد المرصع بالسعف لنقله، وهمس لأمه بأن يتركوا أخيه نائماً دون أن يوقظوه استجابت الأم ولم تعترض وقبلت الأمر كنوع من المزحة، وعلى مضض بين تركه ينام ويرتاح وبين الفزعة التي ربما يتعرض لها عند استيقاظه.

إبناها تنازعا قلبها طاوعت الكبير وأحنت على الصغير جَرّت أقدامها خلف أبنها الأكبر وانتقلا إلى ناحية أخرى غير بعيدة لا يتوه عنها أبنها حالما يستيقظ، وبعد فترة لم تكن طويلة استيقظ الأبن الأصغر فتح عيناه فلم يجد سقفاً ولا ظلاً سوى ظله ألتفت يميناً وشمالاً نظر أمامه وخلفه لم يرى أحد ذُهل وأصبح ينظر باستغراب ويفكر إلى أي اتجاه يمكن أن يسير وضع يداه حول فمه وصاح أمي أمي أمي سمعت الأم صياحه لم يتملكها الصبر أوعزت لأبنها الأكبر بأنها ستذهب إليه حاول ثنيها عن ذلك دون جدوى جرت في اتجاه الصوت وهو ينظر إليها وما أن ابتعدت عنه حتى سقطت هرع إليها مسرعاً مردداً أمي أمي أمي سمع الأبن الأصغر النداء فهرول إلى نفس المكان مردداً أمي أمي إلى أن التقيا عندها ملقاة على الأرض بجانب أثر لأفعى برية.

2017/8

وجهة نظر

تلك القولة الشهيرة التي تقول إنك إن أردت تنظيف السُلَّم عليك بالبدء من الأعلى إلي الأسفل والقصد لدى المثقف معروف وواضح ولكن ماذا لو اسقطنا هذه المقولة علي الأمن ماذا نقول, هل يجب أن نوئمن الرئيس أولا تم رئيس الوزراء فالوزراء فأعضاء مجلس النواب والدولة والقيادات الأخرى وهكذا بالتدريج شيئا فشيئا إلي أن نصل إلي ذيل القائمة المواطن هل يعقل هذا والمشكلة أن المواطن يصبر ويصبر في انتظار دوره في الأمن ليكتشف أن دوره هذا بالضبط كما هو دوره في المصارف أو في أي مجال آخر، يدركه بعد أن يشتاق اليه شوق المعذب .

وهذا المسكين صاحب الأنين الذي لا يُسمع إلا من أقرانه يظل يكابد وقد يضطر للجوء إلي مخبئه بيته الذي يجد فيه الحد الادنى من الأمن والأمان فلم يفسروا له السادة المحصنون بشتى انواع الاجهزة الأمنية لماذا لم يفكروا في أمنه أولا فهو مهدد في الشارع والعمل والمدرسة والجامعة وأمام المصارف ولا أحد يحميه قرأت الكثير من الاسماء للأجهزة الأمنية لم أجد واحدا منها تحت اسم جهاز أمن المواطن.

الأمن ليس رقم علي الشريط الاخباري الأمن ليس محضرا يفتح لدي جهة مشهود لها بالقبض علي المجرمين الأمن شعور بالطمأنينة وعدم التعرض للأذى أيا كان نوعه الأمن حماية للذات من الجميع بمن فيهم أفراده .

2017

تعديل عمر

كان الحاجب يتمتع بصوت جهوري وقوي ، لعلها أحد الميزات التي أهلته ليكون حاجباً بالمحكمة ، نادى علي اسمي بعد أن استمعت لعدد من القضايا الغريبة من اصحابها بصالة الانتظار ، وكأنه حرمني من الاستمتاع بالاستماع إلي المزيد منها

قمت واقفاً وتقدمت نحو باب صالة المحكمة ، دخلت وقفت أمام القاضي الذي كان يحيط به ثلاثة من حوله مستشارين وكتبه ، قلت السلام عليكم ردها عليَّ القاضي بصوت فاتر ، أملى علي الكاتب بعض الجمل القانونية ، تم ادار نظره نحوي وقال:

ــــ هل أنت آدم

ــــ نعم

ــــ ماذا تطلب

ــــ تعديل عمر .

ــــ هل لديك أي مستندات داعمة لذلك .

ــــ لا

ــــ ذكرت أنك ولدت في نفس التاريخ المدون بالسجل المدني هل هذا صحيح .

ــــ نعم

ـــــ وهذا يتوافق مع ما هو مدون بالمستندات الرسمية للمستشفى الذي ولدت فيه ما المشكل اذاً .

ـــــ المشكلة اني لا اشعر بأن عمري كما هو مدون من حيث السنين .

ـــــ المحكمة لا دخل لها بمشاعرك .

استشار القاضي من حوله ثم قال

ـــــ سيتم عرضك علي طبيب نفساني أولا ثم ننظر في الأمر .

ـــــ وهل سيتأخر ذلك كثيراً

ـــــ سنحدد موعد الجلسة القادمة بعد استيفاء التقرير .

ـــــ وكم سيضيع من عمري .

ـــــ انصرف الأن .

انصرفت إلي خارج الصالة ولكنني لم أغادر المبنى عدت إلي صالة الانتظار فقد أعجبني الوقت الذي أمضيته فيها ، لم أعد إلي نفس الكرسي ذهبت بعيداً إلي أقصاها للاستماع إلي المزيد من القضايا من أفواه اصحابها ، الغريب أن معظم من فيها كأني بهم يودون الإفصاح عن قضاياهم وسبب وجودهم في هذا المكان علي الرغم من عدم المعرفة السابقة بأي منهم وما أن تقترب من أحدهم وبحركة ما تعبر بها عن سخطك وتدمرك وعدم ارتياحك تصحبها نظرة بسيطة إلي من حولك ستجد الجواب من أحدهم ليقول لك

ـــــ لا باس

ـــــ لا والله قضية بسيطة تعديل عمر

ـــــ تعديل عمر

ـــــ نعم

ـــــ إن لم تكن حراً معنا لقلت إنك تحمل في رقبتك رقبة أو اثنان .

ـــــ رقبة واحدة

ـــــ وتجلس معنا أما قلت تعديل عمر

ـــــ هـ هـ هـ هه

ـــــ لماذا تضحك

ـــــ اعني رقبتي

ـــــ هـ هـ هـ هه

اقترب الحاجب من باب صالة الانتظار توقع الجميع مناداة أحدهم إلا أنه صاح قائلا الهدوء أنتم في محكمة ولستم في مدرسة ، صمت الجميع وقطع خط التواصل بيني وبين كل من بالصالة الذين كانوا يسترقون السمع لحديثي مع ذلك الرجل .

يبدوا لي أن كلٍ منهم كان يهرب بفكره إلي حديثنا ليريح نفسه قليلاً من التفكير في قضيته .

عاودت الحديث مع ذلك الرجل بصوت خافت قليلاً أتعب سماع المتواجدين وخاصتاً الفضوليين منهم حتى أن بعضهم اقترب من مجلسنا قليلاً.

رددت عليه سؤاله

ـــــ لماذا تضحك

ـــــ قصدت كأنك قتلت شخصاً أو اثنان.

ـــــ وانا فهمتك أيها الغبي .

ـــــ يبدوا أنك منفتح جداً كيف تدعوني بالغبي ولم اتعرف عليك قبل الأن .

ـــــ لا لا فقط وددت اخراجك مما أنت فيه

ـــــ صحيح

ـــــ نعم

ـــــ شكراً لك أنت شفاف قل لي

ـــــ نعم

ـــــ أود استشارتك في شيء

ـــــ تفضل

ـــــ لدىّ قضية رفعها ضدي بعض الجيران

ـــــ ما هي هذه القضية

ـــــ قضية انبوب وباب وبئر

ـــــ امسكت نفسي عن الضحك وقلت أوضح أكثر .

ـــــ أنا اقطن في الدور الأرضي بالعمارة التي يسكنها اثنى عشر عائلة، وتوجد حديقة صغيرة تطل علي أحد جوانب شقتي كما يوجد

بها خط المياه المغذي للعمارة والذي تنساب منه المياه إلي خزانها العلوي الذي يضخ المياه لكل العائلات .

ـــــ جميل إلي هنا الأمور واضحة وجلية .

ـــــ المياه

ـــــ ما بها

ـــــ لم تعد تصعد إلي الخزان العلوي نظراً لانقطاعها المتكرر وضعفها .

ـــــ وماذا فعلتم

ـــــ قام الجيران على أثر اقتراح احدهم بحفر بئر في تلك الحديقة وطلبوا مني دفع جزء من تكاليف ذلك البئر الموزعة علي كافة الجيران ، فرفضت الدفع .

ـــــ لماذا

ـــــ لا حاجة لي به

ـــــ كيف والخزان يضخ للجميع

ـــــ قلت لك لا حاجة لي به فقد تدبرت أمر توفير المياه لشقتي بتركيب انبوب مياه مباشرتاً من خط المياه الرئيسي ولم يكلفني ذلك شيء وضعف المياه لا يؤثر عليَّ .

ـــــ نعم فهمت طلبوا منك دفع نصيبك في البئر فرفضت وطلبوا منك إزالة ذلك الانبوب الذي يغذي شقتك من الرئيسي فرفضت أيضا.

ـــ هو ذاك بالضبط

ـــ لقد شكلت ضدهم جبهة انت رئيسها واعضائها أفراد عائلتك .

ـــ لا افهمك

ـــ سأفهمك بعد أن تكمل .

ـــ نعم نسيت أن اقول لك أنهم بالإضافة إلي دفع نصيبي في رأس مال البئر عليّ الالتزام بأخذ دوري في تعبئته وتنظيفه وادخلوني في قصة.

ـــ وماذا عن الباب

ـــ فتحت بابا لشقتي يطل على الحديقة مباشرتاً غير ذلك الموجود اسفل السلم ، كانوا دائما يتهكمون مني بأن كل الجيران يمرون عليّ قبل صعودهم إلي شققهم أو عند مغادرتها واني دائما الأعلم بمن هو موجود بشقته أو غير ذلك حتى وصفني ذات مره أحد الجيران بأني بواب العمارة ودخلت في شجار معه وهو الأسوأ من بينهم كان يرمي القمامة من أعلى لتسقط بجانب شقتي وتنبعث منها الروائح الكريهة ولا استطيع فتح نوافذ الشقة أحيانا ، أفكر في طلب من القاضي بتكليف أحد للقيام بزيارة ميدانية وتقييم الوضع علي الطبيعة واقتراح الحلول ما رأيك .

ـــنعم أنت ترغب في تكليف موفد من هيئة المحكمة لزيارة العمارة والتواصل مع الجيران وتقييم الموقف والتنسيق مع القوى

المجاورة القاطنين بالعمارات المحاذية لكم فمن المؤكد أن لها يد في ذلك.

ـــ أجل كيف علمت ، بعض الجيران لهم أقاربهم وأصدقائهم يدعمونهم ضدي .

ـــ ولماذا يتدخلون في شئونكم .

ـــ إنهم ملئ بالغيرة منا

ـــ مما يغيرون وأنتم في خصام محاطون بالقذارات .

ـــ من كل شيء حتى اسمنا.

ـــ اسمكم

ـــ نعم كل عمارة في منطقتنا لها اسم .

ـــ وما اسم عمارتكم

ـــ التحدي

ـــ اوو ـــ التحدي ـــ اسم قوي وجميل ولكنكم لم تكونوا في مستوى التحدي

ـــ لقد أثاروا فينا الفتنة

ـــ الا تشعر أنك مشاركاً فيها

ـــ لقد اقترب موعد مناداتي ولم تجبني ما رأيك .

ـــ قل للقاضي ما تشاء أنا متأكد أنه سيكلف أحد الخبراء لتقييم الوضع ، ولكن ما رايك في أن أحل عليك ضيفاً وأتدخل بينكم كوسيط ، هذا رقم هاتفي إن شئت .

لم يتبقى سوى عدد قليل من المنتظرين ، وقفت وتوجهت إلي باب الصالة للمغادرة فجأة استوقفتني امرأة عجوز ونادتني بإسمي ، كأني أحلم أو أني ارى شبحاً يناديني فلا يعقل أن أكون علي علاقة مع هذه العجوز لا من بعيد ولا من قريب ولكن لا مفر أجبتها.

ـــــ نعم هل تعرفينني

ـــــ قبل إن تعرف نفسك

ـــــ ماذا تعنين يا أمي

ـــــ قل لي كيف حالك

ـــــ بخير وفي بحبوحة من العيش ودائم الانشغال بعملي إلا أنني في السنوات الأخيرة لم أعد أشعر بالأيام وهي تمر حتى أني فوجئت أن عمري تعدى الخمسون سنة تعجبت من سنين لم أحياها ، أعدت حساباتي قررت أن ابدأ عمري من جديد

ـــــ مستحيل

ـــــ لماذا مستحيل

ـــــ وهل سأرضعك من جديد

ـــــ يا الله أنت مرضعتي

ـــــ نعم يا بني

ـــــ أمي أمي

ـــــ لا تبكي .... من عمرك الخمسون قضيت عامان علي صدري .

ـــــ لماذا انقطعت عنا

ـــ أمك يا ولدي لم تكن ترغب في وجودي في حياتكم

ـــ عذراً أنت أمي هل لي بسؤالك لماذا أنت هنا .

ـــ لا داعي يا ولدي

ـــ أهو سر

ـــ ستعلم ستعلم

ـــ أعلم ماذا

ـــ أنا الزوجة الأولى لأبيك المرحوم

ـــ الزوجة الأولى !!

ـــ نعم بقينا متزوجين لسنوات دون أن ننجب أطفال ، كنت أعلم كم هو شغوف لطفل أو أثنان يملأن حياته ، كان يعاملني كأنني أم لعشرة أولاد لم يقصر معي في شيء صب كل فكره في عمله ، كان يحتفظ بمشاعره داخله حتى لا يشعرني بشيء يضايقني ، نفذ صبري ، شعرت أنني أقف عائقاً أمام حصوله علي اطفال ، صارحته وأبديت قبولي وعدم اعتراضي علي زوجة ثانية له ، لم يوافق نبله الجم لسانه عن الموافقة ، مرت الأيام وأنا في كل مرة أعيد وأعيد حتى وافق .

تزوج من أمك وبعد شهر من زواجه شاء القدر أن أحمل بطفل ، كتمت أمر حملي عليه وعلى زوجته احتراما لمشاعر زوجته الجديدة وقلت في نفسي استطيع إخفاء ذلك لمدة شهرين او ثلاث فلربما تتضايق من ذلك فأنا امرأه وأعلم بالنساء ، وقبل أن اكشف على ذلك

السر دخل عليّ ذات مره فرحاً يكاد يطير من الفرح وقال لي زوجتي حامل ، اختلطت عليَّ المشاعر وفي لحظة كدت اقع في الخطأ .

غمرني فرح شديد وباركت له ولها وبكيت لهذه السنوات التي حرمته من هذه الفرحة وكتب لأخرى أن تكون سبباً فيها رغم آلامي وفرحتي التي لم تغادر صدري .

ولنفس السبب لم أخبره مره اخرى بحملي الذي سبق حمل زوجته ، كنت ارى فيه الحبيب المعذب ، حتى وجدت نفسي في يوم من الأيام أن الزمن دفعني للبوح بما أنا فيه وصارت الفرحة فرحتين دون أن يكونا متساويتين .

استمر حملي وحملها وبحكم الأيام أنجبت قبلها كان فرحاً جداً بطفله الأول دون أن يجرؤ علي حمله إلي زوجته الأخرى ، كنت أقدر ذلك ولم يكن هذا الأمر يزعجني في شيء .

كانت سنوات عمري الأولى معه اساساً لا يستطيع اقتلاعه أحد .

ـــــ اين أنا من كل هذا حتى الأن

ـــــ كل شيء بقدر وقد قدر الله لك أن تعلم به الأن .

ـــــ أكملي أرجوك قبل أن يناديك الحاجب أخشى أني لا أستطيع مقابلتك في مكان آخر بعد سماع كل هذا ، هذه فرصتي ولن اصبر أكثر كي أعلم بالباقي .

ـــــ بعد أن انجبتك أمك فرحنا بك كثيراً ولكن

ـــــ ولكن ماذا

ـــــ امك

ـــــ ما بها

ـــــ لم يكن لديها حليب لترضعك ، أشار والدك إليَّ لكي ارضعك ومن الطبيعي أن اقبل بذلك ، ومن الغريب أن أمك لم تقبل بذلك وأصرت على أباك أن يبحث لك عن مرضعة أخرى .

بقيت لأسابيع لا تكف عن الصراخ للكميات القليلة من الحليب الذي ترضعك إياه وأيضا لأني كنت اقتنص أي فرصة لإرضاعك دون علمها ، ولكن هذا لم يستمر طويلاً لأن اباك عجز عن إيجاد مرضعة لك وحينما أحست بالخوف عليك قبلت مني رجائي بإرضاعك .

كنت أمسك بك وبأخيك يميناً ويساراً وأتصرف بعفوية إلا أنني فوجئت ذات مره باحتجاج شديد منها كاد يؤدي إلي خصومة واتهمتني باني لا أعدل في الرضاعة .

بعد سنوات لم تكن طويلة أحسست أن الزمن عاد بي إلي الوراء بعد أن فقدت طفلي اثر مرض الم به وتَحولتُ إلي خادمة كانت تبحث فقط عن الاحترام لتستمر في حياتها وتقبل بنصيبها ولكنها لم تجده .

ـــــ مات أخي

ـــــ صارحت اباك كما صارحته بقبول تزويجه بأخرى بأني أرغب في الانفصال عنه ، كل قراراته كانت صائبة حتى تلك القاسية ، وافق بشرط ان لا يطلقني وأن ابقى على ذمته ما دمت حيه ، كانت آخر جملة نطق بها أمامي ، أنت صاحبة الفضل عليَّ في كل ما أملك دعي ذلك للأيام من يدري فهمت ولم أعلق ، أشعر أني قد أطلت عليك كثيراً.

ـــــ لا لا أكملي

ـــــ عندما بلغت سن الثانية عشر توفى أباك

ـــــ نعم أعلم هذا

ـــــ تغيرت حياتي ، تزوجت من آخر تقدم للزواج مني ، ما كان يعيبه شيء سوى فقره، عشت معه سنوات جميلة ورزقت منه بطفل ربيته وكان كل حياتي ومكمن أسراري .

ـــــ لم يتبقى بالصالة إلا شخص واحد لعل الاسم التالي هو أنت .

ـــــ لا لا تخف سأكون آخر اسم يتم مناداته .

ـــــ كيف حضرت إلي هنا

ـــــ أحضرني ابني

ـــــ هل وصلتم متأخرين وأين هو .

ـــــ لا، كنا أول من وصل .

ـــــ إذن لماذا أنت آخر اسم يتم مناداته .

ـــــ لأن ذلك يتوافق مع عمل ابني .

ـــــ لم أفهم بالضبط لماذا أنت هنا .

ـــــ ذكر لي ابني أنه من الظلم أن يفرط الانسان في حقه وخاصة إذا كان ذلك الحق ضرورياً لحياته ، انا هنا يا بني في قضية ضد أمك .

ـــــ يا إلاهي أمي تنازع امي

ـــــ أمك حجبت عني كل ما يملك أباك وأنا كنت على ذمته عند وفاته وكل الاثباتات الدالة على ذلك موجودة لدى ابني .

ـــــ اين هو ابنك .

ـــــ سيظهر بعد قليل الحاجب .

ـــــ من الذي سيظهر بعد قليل الحاجب أم ابنك .

ـــــ ابني هو الحاجب .

ـــــ ما هذا اليوم هل لي بلمسة من يدك على رأسي لكي اعلم أني لست في حلم ، ارجوك يا أمي هل تقبلينني وسيطاً بينكم .

ـــ هذا رقم هاتف ابني .

ـــــ يجب أن أغادر الأن إلي اللقاء .

غادرت مبنى المحكمة بعد أن زادت عدد السنوات التي ستضيع من عمري ، ولكي يقتنع القاضي بعمري الحقيقي لابد من اقناع الطبيب النفساني أولا ، لا أدري كيف سأواجه أمي بما عَلِمت وهي التي خبأت عني كل ذلك لسنوات طويلة .

بعد ايام لم اجرؤ فيها على البوح لأمي بأي شيء ، قررت أن ابدأ أولا بالاتصال بأخي في الرضاعة للتباحث معه ودراسة أفكاره ومدى تقبله للحوار بيننا ، أمسكت بالهاتف وكأني سأخاطب القمر رن الجرس عنده ، لم يرد لا أدري إن كنت سعدت أم تألمت من ذلك ، اشعر أنه منحني تجربة الاتصال به أولا ، عاودت الكرّة في اليوم التالي رد عليَّ بصوت منخفض على غير عادته بالمحكمة ، القيت عليه بالتحية ، ردها عليّ وقال

ـــــ من معي

ــــ أنا أخيك

ــــ عذراً لم أتعرف عليك أصدقائي كثر وكلهم أخوتي .

ــــ أنا أخيك في الرضاعة آدم

ــــ اهلا وسهلا أخبرتني أمي وتوقعت اتصالك .

ــــ أتمنى أن تكون بخير أنت وأمك هل نلتقي في مكان ما لتبادل الحديث .

ــــ لا مانع لدي .

ــــ ما رايك في اللقاء بمقهى الصفوة .

ــــ الصفوة ... اعتذر أنا لا أرتاد تلك المقاهي فهي مكلفة وبعيدة عني ولن أجد المواصلات القريبة منها .

ــــ ما رايك في مقهى الحاج فاصوليا هل تعرفه

ــــ نعم نعم اعرفه وأنا موافق

ــــ نلتقى غداً مساءً هناك إن لم يكن لديك مانع

ــــ حسناً حسناً

ــــ إلي اللقاء

اقفلت الخط وتنفست الصعداء ، كنت أعلم ان زيارتي له في بيته غير مناسبة في هذا الوقت ولكي لا احرجه فأنا لا علم لي بسكنه ولم استطع دعوته لأني توقعت أنه لن يقبل مني ذلك .

ولكن اين هو مقهى الحاج فاصوليا ،انا لا أعرفه ولكنني لم أجد بداً من القول اني أعرفه ، سوف اسأل عنه ولا بد أنه في أحد الاحياء الشعبية المجاورة .

في اليوم التالي وقبل حلول المساء بوقت كافي تجولت بسيارتي في أحد الشوارع المكتظة بالناس وسألت عن ذلك المقهى ، ومن شخص لآخر إلي أن اهتديت لرجل قال لي أنني لا أعلم إلا مقهى واحد يسمى مقهى الحاج فاصوليا ولا ادري إن كنت تقصده ام لا إنه في الشارع الخلفي وعليك ركن سيارتك هنا والذهاب على قدميك وستجد عند منتصفه عبارة كبيرة على أحد الجذران تقول هنا مقهى ومطعم الحاج فاصوليا

ـــــــ إذن هو مطعم أيضا

ـــــ كل شيء

ركنت سيارتي وتقدمت سيراً على الاقدام في ذلك الشارع المزدحم بالبشر والأصوات والقطط ايضا ، السير فيه يتطلب حنكة وحرص وعدم الاكتراث للنظرات الثاقبة أو المستفزة مع وجود بعضها الضاحكة فلا مكان يخلو من الطيبة وحسن الخلق .

تقدمت حتى وصلت إلي ذلك الحائط قرأت ما عليه مع سهم كبير يشير إلي باب المقهى ، دخلت سحبت أحد الكراسي وجلست ، اقترب مني النادل ووضع أمامي منتضده دائرية لا تكاد تسع فناجين من القهوة تقف على قدم واحد بحذائين .

قام بتنظيفها جيداً وهو ينظر إلي ، ابتسمت له رحب بي وقال هل أخدمك في شيء، أجبته سأنتظر حضور شخص ما أولا ، رد عليّ تفضل وغادر إلي عمله يبدو أني لم احسن اختيار ملابسي التي ارتديها، الأعين مشدودة نحوي تشعرني بالملل ، سوى تلك النظرات التي يرسلها إليَّ ذلك الرجل الكبير الذي يرتدي اللباس التقليدي ، ينظر إليّ بنظرات ضاحكة مرحبة ، يجلس في زاوية المقهى وأمامه بعض الاوراق لربما كان الحاج فاصوليا نفسه ، اختلطت رائحة القهوة والشاي مع رائحة الفاصوليا التي تقدم على هيئة سندويشات مع كوب شاي ساخن أو بعض المشروبات الغازية ، ويبدو أن الطلب عليها وافر ، الجو لا يخلوا من بعض الضحكات المبالغ فيها من قبل بعض الزبائن ، ولكن لا بأس أنا أمام منظر فلكلوري جميل يتطلب مني الانسجام والتأقلم .

وبينما أنا كذلك دخل رجل شاب المقهى رحب به الحاج فاصوليا حتى قبل أن يحييه رد عليه ثم سحب هاتفه من جيبه والقى بنظره سريعة علي كافة مرتادي المقهى فوقعت عيناه عليّ أرجع هاتفه إلي جيبه وتوجه نحوي توجه الواثق من أنني أنا هو ذاك الرجل الذي سيقابله أعجبني ذكائه أو أن طيف ملامحي علقت بذهنه عندما ناداني بالمحكمة فلا أظن أنه تعرف عليّ من خلال مناداتي بالاسم هناك .

قمت وقوفا حياني رددت عليه التحية سلمت تسليما حاراً لم يبادلني اياه ، وحتى أضع النقاط على الحروف قلت شكراً على حضورك في الموعد ، رد عليّ تربية محاكم وضحك.

بدأ كلامه بالحديث عن المقهى وتاريخه وأنه يرتاده منذ الصغر وقال أن أباه يرحمه الله أصيل هذا الحي وكان يسكن زريبه تطورت بعدها إلي براكه شيدت بالصفيح المعدني واسترسل قائلا كم كنت أحب صوت رخات المطر على ذلك الصفيح ، كان يطربني وارددمعه نشيداً حفظناه في المدرسة يتغنى بالمطر والأرض ، المدرسة التي اهلتني فقط لأكون حاجبا بالمحكمة وأنا ممتن لها بذلك ، فليس كل ما يتمناه المرء يدركه .

غفى فكري عنه قليلا بأني أمام رجل صقلته الايام والصفيح تم استدركت الأمر بنعم نعم .

واستمر قائلا هذا المقهى تم افتتاحه في نفس اليوم الذي ازلنا فيه الصفيح وبدأنا في حفر اساس لبناء بيت لنا ، الاساس الذي ملأناه بالحجر المبعثر هنا وهناك حتى يقلل أبي من التكاليف ، كنت صغيراً ساعدت في ذلك بما اوتيت من جهد بقذف حبات الحجر الصغيرة فيه ، لقد شارك كل جيران أبي العمل على وضع الاساس وبناء الجدران ووضع السقف واستمر ذلك أكثر من شهر اقمت فيه أنا و أمي لدى الجيران ولا أعلم كيف تدبر ابي أمره ولكنني اذكر جيداً أنني منذ سنوات قليلة قال لي الحاج فاصوليا أن أبي كان من أول زبائنه عند افتتاحه للمقهى وأنه يعشق الفاصوليا حتى أنه كان يأكلها كل يوم في تلك الفترة وادركت عندها الإجابة عن تساؤلاتي وأنا طفل عندما كنت أتناول الطعام مع أمي لدى الجيران حتى أني سألتها ذات مره هل تركتي شيئا لأبي ، واحرجتها أمامهم نظرت لي في عيناي فهمت المعنى

وسَكتُ ، تعلمت منها تلك اللغة ولازلت احتفظ حتى الأن بالكثير من مفرداتها الدقيقة.

كان يروي ذلك ولم ينظر اليّ إلا مرات قليلة وتابع قائلا .

اعتذر لك ربما بدأت معك من الصفر كما يقولون .

ـــــ لا بأس ذاك جيد وأنا ممنون لك بأن اطلعتني على هذا التاريخ الجميل واتمنى سماع المزيد .

ـــــ في السنوات الاخيرة التي كَبِرت فيها أمي صرت اتردد انا ايضا على هذا المقهى كأبي أشعر أن الاسباب التي كانت تدفعه إلي ذلك مازالت مستمرة معي أيضا ، بالإضافة إلي كبر أمي ورغبتي في ألا اتعبها معي ، في بعض الايام أعود من عملي وأتغذى هنا شندوتش فاصوليا فاخر مع كوب شاي ساخن وهو مغري كما هو مغري سعره ولذيذ كما هي لذة الاقتصاد والتوفير ، قد استرسلت في الحديث ولم اطلب لك شيئاً .

ـــــ لا شكراً أنا من يتوجب عليه طلب شيء لك ولي فقد سبقتك في المجيء ماذا تطلب .

ـــــ شكراً سأكتفي بكوب شاي .

ـــــ حسناً

صحت على النادل بكوبين من الشاي ، وقلت انت تعلم يا أخي أن سبب حضوري هنا هو ما بين أمي وأمك وبأدق ما بين أمي وأمي أنني في موقف محرج للغاية وكأن الاقدار ساقتني في ذلك اليوم بالتحديد لأعلم بهذا ، لقد عشت زمناً طويلا لم أعلم فيه ما عَلِمته من أمك

واجدني الأن مرغما على ايجاد حل لهذا الوضع فأنا ومن المؤكد انت أيضا لا استطيع السكوت عن وضع تكون فيه أمي في مواجهة أمي بالمحاكم وارجوا مساعدتك في ذلك .

ــــ رد قائلا

نعم كان بودي لو أن الأمر انتهى منذ زمن ولكن المرحوم والدي رغم فقره إلا أنه ينأى بنفسه عن المشاكل وعندما تحدَثَتْ معه أمي عن موضوع الميراث من زوجها السابق وأن ضُرتها كانت ترفض الحديث عن ذلك الموضوع وتقاومه لم يأبى إلا بالجنوح إلي الصمت وتناسى ذلك إلي أن توفاه الله .

نحن أمام إرث لجيل سبقنا لا بد من مواجهته وإلا فإننا سنعيد نفس الأخطاء لتتراكم وتتراكم حتى تضحى كالجبال التي لا يمكن إزالتها لتكون رمزاً للتخلف الذي يصنع له اوتاداً في الأرض ، ويجب أن ننهي كل مشاكلنا ونزيل كل المعوقات لنتفرغ للحياة ، الحياة التي وهبها الله لنا لنعيشها على طاعته ، طاعته التي لم تحرمنا من التمتع بها ، فالله عادل وفي قوله تعالى " وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " إشارة إلي أن البشر يظل ناقصا في الادراك التام للأشياء بما فيها العدل لذلك هم اختلفوا فيه رغم وضوحه التام احياناً .

الغريب أن العدل لا يمنح الحقوق لأصحابها فحسب بل ويقيمها قبل منحها لهم ويضع لها الميزان ، ذلك الميزان الذي وعدنا به الله يوم القيامة لتوزن فيه اعمالنا يومذاك حتى أن مثقال ذرة قد يحدث الفارق ليجازي العبد بما قدمت يداه .

ـــ يبدوا أني أمام حاجب وأديب وفقيه

ـــ هـ هـ هه حسنا أرني من أنت .

ـــ أنا ... أنا الباحث عن عمره ، الحائر الذي لا يدري أهو يحي الأيام أم تحياه ، ارى الأحداث منها ما أتفاعل معها مباشرتاً وأكون طرفا فيها ومنها ما اقف أمامها متفرجاً دون القدرة على فعل أي شيء اتجاهها ، تجبر عقلي على هضم افكاره لترتد على القلب والنفس الماً وحيره ، حتى أني تقدمت بطلب دعوى تعديل عمر إلي العدالة لأعلم كم هو بالضبط فمن المؤكد انه لن يزيد عن تلك الأيام التي نسيت فيها كل ذلك .

ـــ حسناً حسناً إذن انت فيلسوف

ـــ إتهمتك بالأدب فاتهمتني بالفلسفة

ـــ دعنا من هذا وذاك ، القضية واضحة وضوح الشمس وخالية من أية عقد ، لأمي حقها في الإرث من زوجها والأمر بين يدي أمك وأنت وسأنتظر حتى تأتني بالرد وانصحك بألا تدخل شيئا من الفلسفة في هذا الموضوع مع يقيني أن الفلسفة نوع راقي جدا من الأدب .

ـــ معنى ذلك أننا في النهاية واحد .

غادرت بعد أن ودعت أخي بالقبلات والدموع ، عدت إلي بيتنا ، سأنتظر ربما أيام قبل أن أفصح لأمي بشيء مما علمت ، كانت كثيراً ما تعيد على مسامعي جهد أبي وما بدله من عمل لبناء هذا البيت الفسيح قبل أن يأتي بها كزوجة ، والذي ادركت الأن لماذا بناه على هذا الحجم الكبير ولماذا جعل من كل شيء زوجا بل أن نصفاه يكادا يتطابقان

والحدائق التي حوله أيضا لم يغفل عن شيء فشجرة الورد تلك المقابلة للشباك تقابلها شجرة ورد أخرى في قبالة الشباك الأخر المناظر له .

غير أن أمي ورغم حديثها المستمر عن ذلك إلا انها لم تربطه بالتاريخ واكتفت بالقول أنها زُفت إلي أبي بهذا البيت.

كيف حُرمت أمي التي ارضعتني من الاقامة في هذا البيت وانتقلت للعيش في براكه، من الذي عوضها عن كل ذلك غير زوجها حتماً لا أحد ، اشعر أني رأيته في ابنه بالأمس.

يقولون أن الأيام دول وأقول أن الدول رجال والبيوت رجال والنساء أيضاً رجال .

سأذهب إلي النوم ، سأصحو غداً صباحاً للذهاب إلي دولة العمارة ، كدت أنسى الحمد لله الذي ذكرني بذلك ، قمت باكراً ،رن جرس هاتفي ، إنه هو لا بد أن هناك شيء طارئ فنحن لازلنا في الصباح الباكر أجبت الهاتف ، أهلا صباح الخير كيف حالك ، هل هناك شيء أنا قادم بإذن الله ، ماذا ، نعم نعم ، أيعقل هذا من الذي اخبرهم بذلك ، حسناً سأحضر مساءً وسوف اتصرف كما ينبغي ، شكرا لأنك اخبرتني بذلك .

كانت المفاجأة أن الجيران علموا بوساطتي وبتفاصيل حديثي مع صاحب القضية بمبنى المحكمة ويبدو أن محاميهم كان يسترق السمع لحديثنا كباقي اصحاب القضايا وقد ابلغهم بذلك ، وطلب مني تأجيل الحضور إلي المساء لإبلاغهم بذلك .

في المساء خرجت إلي هناك ، ركنت سيارتي بعيداً عن العمارة فقد أُغلقت المنطقة المحاذية للعمارة وتجمع عدد كبير من الناس رجال ونساء وأطفال ويبدون كأنهم في جو احتفالي تقدمت صوب العمارة والتمست طريقي إلي أول شقه بالدور الأرضي وإذا بصاحب القضية يقابلني في طريقي ويرحب بي بصوت عالي التفتَ إليَّ مَن حوله وسرعان ما انتشر الخبر فيهم .

سؤال علق برقبتي عما إذا كان لدي أحد جيرانه عرس أو فرح بمناسبة ما إلا أنه فاجأني بأن هؤلاء هم سكان العمارة قد استعدوا لاستقبالي ، وما هي إلا دقائق معدودة حتى اصطف كل هؤلاء في صف بدأ بالرجال وانتهى بالأطفال وجدت نفسي كأني مبعوث من الأمم المتحدة لتلك الدولة .

توجهت إلي بداية الصف بدأت في السلام بمرافقة صاحب القضية الذي كان يُعَرِّفني بهم بنصف عين تنادت إلي سماعي بعض الهتافات المرحبة التي رضعت ببعض الزغاريد ، لم اتصور مطلقا هذا الاستقبال لا بد أن الأمر يتجاوز ما جئت لأجله ، وأن زيارتي ستستمر لعدة أيام .

أتممت سلامي تم توجهت صحبة أعيان ووجهاء العمارة إلي خيمة نصبت بحديقة مجاورة تماما للعمارة نظيفة ولا تبدو اية أوساخ أو قذارات حولها أو حول العمارة ، راودتني الكثير من الاسئلة ولازلت أعيش صدمة اللقاء التي لم تنتهي إلا بتقديم كوب من الشاي الأخضر المنعش الذي تناولته مع الكعك التقليدي العتيق وكلاهما

بعثا في نفسي روحاً ايقظتني مما أنا فيه ، لاحظت أن صاحب القضية جلس عن يساري أما من يبدون كأنهم خصومة فجلسوا عن يميني ، مرقت بنظري عبر باب الخيمة المُشرع والواسع رأيت بابا من حديد مطليا بالأسود يطل على الحديقة مباشرتاً ، تبادلنا كلمات الترحيب تم أخذت الكلمة بعد أن وجدت نفسي في موقع المدير للجلسة اغمضت عيناي قليلا تم فتحتهم بعد أن امسكت بقبضتي بمفتاح ذكر في يدي اليمنى لامتصاص الطاقة السلبية من جسدي وبعث الجرأة والحضور في مثل هذه المناسبات وقلت .

ايها الاخوة اشكركم على هذا الاستقبال الجميل والرائع والذي يدل على شيئآن الأول انكم أهل كرم وجود والثاني انكم في مأزق حقيقي ادخلكم في مشاحنات وشجار ومحاكم ومن يدري ربما يتطور إلي أكثر من ذلك ، ولقد اوحى لي بهذا تلك الهتافات التي قُوبلتُ بها وخاصة تلك التي انطلقت من افواه النساء والأطفال لقد عبرت تلك الهتافات عن مدى طوقهم للأمن والأمان والعيش بسلام وأنا إلي هذه اللحظة لم أسمع إلا القليل من معاناتكم ومن طرف واحد ارجوا ان تتاح لي الفرصة للاستماع إلي الجميع وبعدها سنبدأ التفاوض لنزع فتيل الازمة والعودة بالحياة إلي طبيعتها .

أبدى الجميع ارتياحهم إلي كلماتي دون أن يبدي أحدهم رغبة في الحديث سوى إعادة كلمات الترحيب التي مللتها ـــ أهلا وسهلا، مرحبتين ، قدوم مبارك ، نحن جميعا في خدمتك ، لم يبقى لهم سوى

انهم سيضحون من أجلي وربما بأرواحهم ، وكأني بهم يعيدون مشهداً لجريمة ارتكبوها ردحاً من الزمن ومازالوا مستمرين فيها .

أي ثقافة هذه خبراء ، أعيان ، وجهاء ، شيوخ ليس هذا فقط بل أنهم من قبيلة وقبيلة و قبيلة ، لم يقدم لي أحد نفسه على أنه مواطن في دولة العمارة المشهد قاتم وشمس واحدة لن تكفيه !! .

ودعت الجميع إلي لقاء في اليوم التالي وسأبدأ السلم من أعلاه نزولا حتى آخر شقه وهي التي أتت بي إلي هنا .

بدأت في اليوم التالي لقاءاتي صعدت السلم حتى آخره، وقبل أن تَدُقَ يدي باب أعلى شقه تذكرت شيئا يجب أن ابدأ به أولاً ، يتوجب عليّ الصعود إلي سطح العمارة لعل أحد ما اعتدى عليه بالبناء او جعل منه حظيرةٌ للطيور ، واتطلع إلي السماء لأرى الشمس التي تشع على الجميع لعلها غَفِلَتْ عن تلك العمارة .

عدت أدراجي دققت الباب الأول تم الثاني فالثالث فالرابع وعندما يَنالُ مني التعب ارجع إلي بيتي منهكاً جسداً وعقلاً لأعود في اليوم التالي حتى اتممت الاثنى عشر بيتاً .

كنت في كل مره أطرق فيها بابا يتسارع كل من في البيت إلي ملاقاتي وهم يستعدون للأسئلة والنقاش ويبدون استعدادهم لذلك لكنني عوضاً عن ذلك اطلب من كلن منهم مد رأسه لأقوم بطرقه اثنى عشر طرقه بمطرقتي المطاطية التي احضرتها معي وادعيت انها تزيل كل شوائب العقل لدى الانسان وتصفيه وتغذيه بالحكمة والتسامح والحب وأن النتائج ستظهرها لي تلك المطرقة بعد ثلاثة أشهر فهي

قادرة من خلال تلك الطرقات على معرفة العقول المتفتحة والطيبة والاكثر استجابة لما ذكرت ، قمت بالتركيز على البعض ممن لديهم الاستعداد لذلك حتى أن بعضهم انهمر بالبكاء قبل الانتهاء من الطرق ، وما شدني لدى البعض وخاصة منهم البكاة انهم يغمضون اعينهم ويضعون أيديهم على آذانهم وكأنهم لا يرغبون في سماع شيئا ما، اقتربت من أحد تلك الآذان وأنا اقوم بعملية الطرق دون أن يشعر بي صاحبها فإذا بي أمام طبول تَدُقُ على طبلة الأذن تعزف الحان الجهل والتخلف والقبلية وتتغنى بكلمات لمن ترجع ، من جدك الأول ، قبيلتي، ظنا عمي، أصلي وأصلك وفصلي وفصلك حتى كدت أصدق ذلك لولا أني تعودت من الشيطان الرجيم وادركت أن ما تناهى إلي سماعي ما هو إلا نفحات مما في عقولهم المتخلفة .

وأنا على هذا الحال وقبل أن انهي عملي بقليل أبلغني بعض الجيران أن العفونة تزداد كل يوم اسفل العمارة رغم عدم وجود قذارات ، ادركت اني في الطريق الصحيح، وأن كل تلك الروائح الكريهة تساقطت بفعل تلك المطرقة التي دقت الرؤوس وازالت عنها غمامة الجهل والتخلف .

تركت الوضع على ما هو عليه لأيام ولسان حالي يقول اشتدي أزمة تنفرجي حتى فاجأتهم يوما وبدون موعد مسبق ، وجدت أن الأمر لم يعد يطاق وأن نسبة كبيرة من ترسبات الجاهلية الأولى قد تلاشت وما تبقى منها الوقت كفيل بالقضاء عليه ، دعوتهم للنزول وأن يشمروا

عن سواعدهم لإزالة تلك الروائح بما امتلكوا من إمكانات والقذف بها في المجاري بلا رجعة ولم أجد صعوبة في ذلك .

عدت إلي بيتي والسعادة تغمرني بما حققت من نتائج ، كنت اقوم ببعض الزيارات الخفيفة التي لم يلحظني فيها أحد ، بدى لي التغير واضح ومتسارع حتى أكملت الثلاثة أشهر.

ابديت رغبتي في زيارتهم مرة أخرى لم يتأخروا في الرد قمت بزيارتهم ، وهذه المرة لم استغرب تجمعهم بهذا العدد واحتفالهم بقدومي ، كان المشهد يُغْنِي عن الكلام أو التعليق ، جمالا في المنظر وجمالا في النفوس تأملت تلك النافورة التي توسطت الحديقة وهي تعزف بمائها الراقص على انغام الفرح والهناء والسلام وطويت ذلك الملف التاريخي المضنى .

كنت بين حين وآخر استرق شيئا من وقتي للحديث مع أمي عن تَرِكة الوالد وتاريخه وحياته لعلى ادلل الطريق لها للحديث عما بينها وبين أمي التي ارضعتني لكيلا احرجها بظهوري أمامها وكأني فضحت شيئا ما ، وضربت أمثلة لأسئلة أتوجه بها إليها لأختار منها سؤال يلامس وجدانها لتُفصِحَ لي بمكنوناتها وتساءلت ما السؤال الأيسر والأسهل الذي يفتح الباب أمامي للخوض معها في علاقتها بزوجة أبي الأولى ومرضعتي ، ولم يمر وقت طويل حتى اهتديت إلي ذلك السؤال واكثرت من تكراره وفي كل مرة أُلح على الإجابة منها حتى اشعرتها أن في الأمر شيء دون أن يبدو عليّ ما يشير إلي علمي بأي شيء ، كان سؤالي أن كان لديها صورة لمرضعتي أو أن تصفها لي ، ومن باب

الصراحة وبعد هذا العمر الطويل وبلوغها السبعين من العمر ـــ وهي المقدمة التي بدأت بها كلامها ـــ دعتني لتتحدث معي عن موضوع مهم ، كان عليّ التظاهر أمامها بانتظاري لأخبار مفاجئة وربما صادمة وغير ذلك مما سنتحدث به ، وكان ذلك واتقنت التمثيل أو التظاهر بسماعي لأول مرة لتلك الأخبار ، ولكنها لم تشر لا من قريب ولا من بعيد للقضية المرفوعة ضدها ، وذكرت أنها ستكمل معي الحديث فيما بعد .

كان صعبا عليها بعد كل هذا الوقت البوح لي بأن لي أخ من والدي توفاه الله وهو صغير فقد يكون الكلام سهلا يسيراً في وقته المناسب ويزيل عن كواهلنا أثقالا نئ بحملها وتزداد عبر السنين حتى تدمي ظهورنا وتجبرها على الاعوجاج ، فليس ثمة اثقل من الدين إلا الكتمان.

كنت على تواصل مع أخي أعطيت أمي الفرصة بعد أن ايقنت انها لن تستمر في حجب باقي المعلومات عني ـ أعلم أني يجب أن أفعل شيئا قبل موعد الجلسة القادم للقضية والزمن يمر بوتيرة متسارعة وكأنه يستعجلني وزاد من قلقي ولم أعد أنام جيداً وصرت دائم الحديث مع نفسي وأمضي معظم وقتي في اجترار احداث الماضي والرد عليها بمنظار جديد وأسلوب جديد لا يخلوا من المجازفة وارتداء توب البطولة أحياناً .

كثيرة هي تساؤلاتي وكثيرة هي احتجاجاتي أمني النفس بالهدوء وعدم الاكتراث بشيء فلم استطع ، أعلم أني سأدفع الثمن في كل مره ،

الثمن الذي تتضاعف قيمته ومراته دون رؤية ما يوحي بأن هناك من سيرده ليسود العدل والأمن والأمان وندرك أن أيامنا التي نحياها هي فعلاً زمنا يحسب له من أعمارنا .

كان عليَّ زيارة الطبيب النفساني الذي ارشدني إليه القاضي ، ذهبت في الموعد أحمل حقيبتي الملئ بالأوراق والاقلام ، بعض الاوراق كانت المسودات الأولى لكتاباتي والتي آثرت الاحتفاظ بها وحتى الاقلام الفارغة لم أتخلص منها واحتفظت بها لأنها نزفت على أوراقي حتى جفت ولا يعقل أن تكون مكافأتي لها برميها في الزبالة ،ومن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل .

دخلت المصحة وهالني ما رأيت بشر يتشاجرون مع اشباح ، ذاك يلقي بخطاب في تلك الزاوية وهذا ينظر إلي شيء غير مرئي وكأنَّ الله لم يخلق له رموش لتتحرك ، إلا أن شخصاً من هؤلاء لفت نظري كان يقف وقفة جندي رغم عدم ارتدائه الزي العسكري وظل هكذا ولم يتحرك ابداً حتى أني اشفقت عليه لطول الانتظار ، اقتربت منه قليلاً كنت أود التحدث معه بأي كلمة ولو كانت واحدة فقلت له أهلا بك رد عليّ أهلا سيدي .

ــــ هل أنت في طابور عسكري

ــــ لا سيدي

ــــ ومن الذي اوقفك هنا وبهذا الشكل

ــــ الدكتور سيدي

تراجعت عن موقعي واعتبرت ذلك انسحاباً تكتيكياً وظل الرجل صامداً لا يتحرك .

لم انتظر كثيراً حتى تمت مناداتي بأسمى وكأن أخي الحاجب حضر إلي هنا لمناداتي هرعت إلي مكتب الدكتور وقبل أن أدخل عليه قلت للحاجب هناك عدد كبير من المرضى حضروا قبلي لماذا ناديتني قبلهم نظر اليّ بتعجب وقال هم مرضى عاديون وليسوا مثلك .

ـــ ما الذي يميزني عنهم

ـــ انت هنا بأمر من المحكمة

ـــ حسناً فهمت

تشابه غريب بين المحكمة والمصحة ، انتظار ومعاناه ومناداه ، ولا ادري أي المكانين أفضل وما اشبه الدكتور بالقاضي .

دخلت القيت بالسلام رده عليّ الدكتور أيضاً بفتور ودون النظر اليّ ، ولعل هذا بند من بنود التشخيص لا أدري ، وبعد انتظاري لوهله دعاني للجلوس وقام هو واقفا ، دار حول اجنابي وتوقف خلفي لم التفت له ، اعتبرت ذلك انقاصا مني سألني ما أسمك ، ذكرت له أسمي تم قال

ـــ كيف وجدت المصحة

ـــ وجدتها محكمة حضرة الدكتور

ـــ كان عليك مناداتي حضرة القاضي ما دمت وجدتها محكمة .

ـــــ ترددت في ذلك مع أن كل من بالخارج هم اصحاب قضايا يعانون منها .

ـــــ انهم مرضى مثلك

ـــــ لماذا تستعجل الحكم أنا لست مريض

ـــــ أتمنى ذلك ، انت الأن امامي للكشف عليك

ـــــ وهل اتممت الكشف وثبت لديك اني مريض

ـــ لا ولكن أعني أنك أمامي بصفة مريض إلي أن يثبت العكس

ـــ يا الله ما أشبه الليلة بالبارحه

ـــــ ماذا تعني

ـــ أعني الظلمة ـــ أقصد الظلام ـــ لا لا بل الظلم .

ـــــ هل رأيت مني ظلماً

ـــــ كيف لا وأنا المريض إلي أن يثبت العكس

ـــ ستتعبني ، عليك أن تعلم أني لن أظلمك

ـــــ سأقول لك شيئاً

ـــ ماذا

ـــــ يوجد بالخارج رجل يقف وقفة استعداد كالعسكري ذكر لي أنك امرته بذلك

ـــ ولكنني لم امره

ـــــ حسناً أخرج له وأمره بالجلوس تم عد سأنتظرك .

استجاب الدكتور لطلبي على مضض وخرج تم أمر ذلك الرجل بالجلوس ، وقد سمعت الأمر والرد عليه بالقول شكراً سيدي ، تم عاد ليجدني جالساً على مكتبه ، وقف أمامي مشدوها دعوته للجلوس فجلس لم أكن اتوقع منه ذلك كأني به كان يطوق إلي ذلك ويبحث عن أحد يسلم له إنسانه الداخلي بكل احاسيسه ومشاعره وذكرياته ، لم أسئله عن اسمه ولا عن عمره ظللت مكاني جالساً حتى لا افقد مكسباً تحصلت عليه وقلت له ما بالك ؟ هل تفكر في شيء

ـــــ نعم

ـــــ ما هو

ـــــ طفولتي

ـــــ ما بها

ـــــ عندما كنت في انتظار دخولي المدرسة لأول مره كنت شديد الفرح بها حتى أني كنت أهرع إلي أمي كل صباح واسألها هل سأذهب إلي المدرسة اليوم ، وفي كل مره تعيد عليَّ أن المدرسة لم تفتح ابوابها بعد وعليّ الانتظار لأيام معدودة فقط وسترسل بي إلي المدرسة ، كنت في انتظار ذلك اليوم بفارغ الصبر ، إلي أن جاء ، جهزتني امي أوصلتني إلي المدرسة ، دخلت الباب وتركتني وقد نسيت أني سأبقى لوحدي ، فكرت في العودة لأمي لعلها مازالت في انتظاري خارج الباب ، نظرت إلي امامي قابلتني امرأة تضع نظاره سميكة على عينيها اشارت عليّ بالتقدم تقدمت قليلا أخذتني من يدي أحسست بالأمان أوقفتني بالطابور مع مجموعة من أقراني اعتقدت اننا سنلعب مع بعضنا البعض فعلى

طول الساحة وعرضها توجد عدة مجموعات متقاربة في السن ، امسكت بيد زميلي تم دعوت آخر وآخر ليشدوا معنا ايديهم لنبدأ اللعب وكوننا حلقة وبدأت بهم في إنشاد أحد الاناشيد التي نستمع لها في برامج الرسوم الكرتونية وكنا في فرح شديد باللقاء والمدرسة ، ولا أدري من أين تسللت تلك المعلمة وكيف اخترقت تلك الحلقة وصفعتني على وجهي صفعتاً لم أنساها حتى اليوم وقضيت يومي الدراسي الأول باكياً مستسلماً لكل ما أمرت به اثقائاً للعقوبة .

كان هذا اول درس تعلمته في المدرسة ، عادت بي أمي إلى البيت وجدتني كئيباً حزيناً لم أتحدث معها في شيء كنت في غاية الآسى وكأن امي غدرت بي وسلمتني إلي تلك المعلمة اهتزت مشاعر الأمان في قلبي ولم أعد مطمئناً حتى وأنا مع أمي بل إنها ستجبرني على العودة مرة اخرى إلي تلك المدرسة اللعينة وتمنيت لو تهدم ، أصرت أمي على ذهابي إلي المدرسة في اليوم التالي فرفضت رفضاً شديداً قاومت بالصراخ وهي تسأل وتعيد لماذا لماذا ، اتهمتها بالكذب عندما كانت تحدثني أني سألتقي بالمدرسة مع أصدقائي الاطفال ونتعلم ونلعب واني سأحبها وأحب معلماتي ، سألتني ما الذي جرى ؟ أخبرتها ويدي تتحسس خذي الأيسر الذي لم أنم عليه البارحة .

لم اغادر البيت لأسبوعين متتالين ولم تجدي معي كل توسلات أمي للعودة إلي المدرسة التي زارتها عدة مرات للتعرف على تلك المعلمة التي صفعتني في اول يوم أدخل فيه المدرسة دون أن تدرك ذلك للتعتيم

والتضليل الذي مارسته الإدارة والمعلمات معها وسُجِلت القضية ضد مجهول لأن الشهود أطفال ومن المؤلم اقحامهم في شاهد ومشهود .

كانت تجربة قاسية على طفل صغير كأنها البدرة التي نمت ببطء شديد بداخلي ، حاولت التخلص منها لكن ذاكرتي كانت تغذيها في كل مره ، واضنها كانت الحجر الأساس لاختياري الطب النفساني ودراستي لعلم النفس الذي ابدعت فيه ولم أندم على شيء بقدر ندمي علي عدم حصولي على صورة تلك المعلمة لتعليقها بصالة انتظار المرضى مكتوب عليها صاحبة الفضل في انشاء هذه المصحة وخاصة أني لازلت اذكر أن تعابير وجهها كانت مليئة بكل الفصول ولم تكن قادرة حتى على العدل بينها وامعنت في ابراز أيام القبلي اللافح وموسم تساقط الاوراق واخفت الربيع الناطق بالحسن والجمال .

تساءل أين أنا

ـــــ أنت في مصحتك

ـــــ ولماذا تأخذ مكاني هل سلكت هذا المسلك لإقناعي بأنك لست مريض لا تتعب نفسك أنت فعلا لست مريض وبكامل قواك العقلية لقد ادركت ذلك من خلال اطلاعي على ردودك البسيطة بالمحكمة وهي لغة لا يفهمها إلا المتخصصين بالطب النفسي ، قم وليأخذ كلن منا مكانه أيها المريض .

مريض !!!

ـــــ اعني الصفة التي دخلت بها ومن المؤكد أنك ستخرج بدونها .

فجأة وقبل أن اغادر دخل داك الرجل العسكري فتح الباب وتقدم نحو الدكتور بمشية عسكرية قوية ، توقف عنده والقى بالتحية حتى أن يده بدت كأنها من فولاذ وهي تهتز بجانب جبينه تم ارتدت كالبرق بمحاذاة جنبه الأيمن وصاح قائلا قد مللت الانتظار سيدي لم أتوقع رد الدكتور التلقائي والسريع حين قال له ، عسكري استعد تصمر ذاك الرجل بمكانه وما عاد يبذى أي حراك ، وأردف قائلا له ، كان عليَّ ابقائك على هذا الحال بالصالة ولكنني استمعت إلي نصيحة لم تكن في محلها بعد أن القى بنظرة نحوي .

اومأت براسي للدكتور ان اقترب مني ، أجابني وَدَنى بأدنه امام فمي ، قلت له هل أغادر أم أبقى لعلك لست في مأمن منه ، ضحك وقال لي هامساً لا تخف ، ألا ترى انه يطيعني ليس هناك اسهل من علاج حالته إنه ببساطة لا يمارس عمله الطبيعي مما أثر عليه وجعله على هذا الحال الذي تراه .

ـــــ وما الذي ستفعله معه

ـــــ سأرسل به إلي الحدود وعندها سينتهي كل شيء ويعود إلي طبيعته

أذهلني الدكتور بتشخيصه وعلاجه غادرت وأنا اردد قد خلق الله لكل داء دواء حتى إن كان داك الداء نفسياً.

عدت إلي بيتي دخلت غرفة نومي وقضيت بقية يومي نائما كأني ارغب في نسيان كل شيء ولم يعد يهمني ما يحكم به القاضي ، له ان يبقيني شاباً أو ان يدفع بي إلي الكهولة حتى النخاع سواء بسواء وما

يهمني الأن أن أجمع بين أمي وأمي كما بدأتا حياتهما الأولى ، لم يتبقى سوى خطوات قليلة جداً لتُفرِغ لي أمي كل ما تبقى بجعبتها من اسرار إلا انني اشعر أنها فضلت سياسة الخطوة خطوة واتوقع الدخول معها في مجادلة صعبة بعد أن تزيل عنها هذا العبء الثقيل ، عاودت الحديث معها أكثر من مره وفي كل مره تقترب أكثر إلي آخر خطوه وكأني بها تحسب حساب موعد الجلسة القادمة لها في المحكمة والتي اقتربت كثيراً مما أصابني أنا أيضا بالقلق فلن يتبقى سوى اسبوع واحد على موعدها ، وفي حوار معها بَدَأَتهُ بالبكاء والدموع المعبرة عن الألم والضيق إلا أن ذلك اسعدني على غير طبيعة الانسان اتجاه أمه فقد ايقنت أنها بداية في الاتجاه الصحيح ، ففي هذا الحوار وبعد أن كفكفت دموعها ذكرت أنها بحاجة إلي الراحة أكثر من اي شيء آخر ولم يعد باستطاعتها تحمل المزيد من المعاناة .

وعند سؤالي لها عن هذه المعاناة لعلي استطيع التخفيف عنها نظرت في عيني وضحكت بألم وقالت ، لا تمزح معي أنا لا أشك لحظة في أنك تعلم كل شيء بل أكاد أجزم بذلك لا تنسى أنك ابني الوحيد وأنا لم أُعلمك النطق والقراءة والكتابة فقط بل وكيف تفكر أيضا ، ارجوك وفر عليّ كل هذا وابدأ في اتخاذ كل ما يلزم ، لن اقف أمام القاضي ، مسحت بيدي على رأسها ابتسمت وهي تنظر إلى أقصى البيت وكأنها تخال مرضعتي فيه .

2017 / 11

المحتوى

الهيئة العامة للثقافة

GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE